

ثقافة

المعنى

فاروق حسان



للنشر و التوزيع



العلم و الإيمان

إهداء ٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

ثقافة المتنبي

فاروق حسام

العلم والإيمان للنشر والتوزيع

البيانات		
ثقافة المتنبي .		Title - عنوان الكتاب
فاروق حسان		Author - المؤلف
الأولى .		Edition - الطبعة
العلم والإيمان للنشر والتوزيع .		Publisher - الناشر
كفر الشيخ - دسوق - شارع الشركات ميدان المحطة. تليفون : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١		عنوان Address الناشر
التجليد	مقياس النسخة Size	عدد الصفحات Pag.
مجلد	٢٤,٥ x ١٧,٥	١٦٠
الجلال .		Printer - المطبعة
العامرية إسكندرية.		عنوان المطبعة - Address
اللغة العربية .		اللغة الأصل
٢٠٠٨ / ٢٠٩٥ م		رقم الإيداع
977- 308 -170 - 2		I.S.B.N. الترميم الدول
2008		Date - تاريخ النشر

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحذير:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأي شكل

من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

إهداء

إليه .. هناك ..

في جنات النعيم ...

ابنى شرف ...

الذى فارقتنا طفلاً

وكانه استشرف الآتى ...

فامروء

ربيع ٢٠٠٣

وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما

تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما تثقفه اللسان . .

"ابن سلام / طبقات فحول الشعراء"

الفهرس

م	الموضوع	الصفحة
	إهداء	٢
	مقدمة: موضوع البحث وأهدافه ومنهجه ومراجعته مصادره	٧
	الفصل الأول: ماهية الثقافة	١١
	الفصل الثاني: المتنبي .. النشأة الثقافية	٢٥
	الفصل الثالث: التجديد عند المتنبي	٤٣
	الفصل الرابع: ألفاظ المتنبي ومعانيه	٦٣
	الفصل الخامس: المتنبي والفلسفة اليونانية	٨٩
	الفصل السادس: أثر مصر في شعر المتنبي	١٠٧
	الفصل السابع: المتنبي .. والسراقات الأدبية	١٢٥
	الفصل الثامن: العاطفة الدينية والقرمطية عند أبي الطيب	
	المتنبي	١٣٩
	خاتمه	١٥٥
	ثبت المصادر والمراجع	١٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

موضوع الدراسة وأهدافه ومنهجه ومراجعته ومصادره لم يحظ شاعر بالاهتمام قديماً وحديثاً مثلما حظى المتنبي. ولم يقتصر الاهتمام به على الدائرة العربية وحدها، وإنما تجاوزها وتعداها إلى المستشرقين في كافة أنحاء أوروبا وخاصة: بلاشير وكراشوفسكى وجبريلي وغيرهم. وقد اعتاد الباحثون والدارسون أن يضمنوا مقدماتهم عرضاً للمصاعب التي تلقاهم أثناء بحثهم والتي يتمثل أبرزها في ندرة المصادر والمراجع أو قلتها. ولكن الأمر بالنسبة للمتنبي يختلف، فتنبع ذلك العدد الهائل من الدارسين لشعره – سواء له أو عليه – يمثل عبئاً ثقيلاً لمن يتصدى لمعالجة شأن من شئونه، خاصة أنها تعد بالئات.

والملاحظة الجديرة بالانتباه والتسجيل هي أن كل تلك الدراسات أهملت دونما عمد جانباً مهماً من جوانب شموخ هذه الشخصية، ونعني بها ثقافته...، ثقافته بوصفها دراسة قائمة بذاتها، حقاً أن غالبية – إن لم يكن كل هذه الدراسات قد لست هذا الجانب على وجه من الوجوه، إلا أنها لمسته كمعبر للوصول إلى غايتها، ومن ثم جاءت أي ثقافته – كجزئية غائمة الملامح متقلصة القسّمات لا تكاد تبين، الأمر الذي لا يتسق وكونها المرتكز والمنطلق لأية دراسة عن أي شاعر خاصة إذا ما كان في حجم أبي الطيب المتنبي.

ويوضح عنوان الدراسة الأغراض التي تدخل في محيطه وتندرج في إطاره وهي ثقافة هذا الشاعر الذي تلقف النقاد أدبه في القديم والحديث على السواء ولم يكن طريقنا في هذه الدراسة سهلاً لأسباب - أو عناصر - ثلاث، نوجزها في :

١. وجود ذلك الكم الهائل من الدراسات التي تناولت الشاعر بأكثر من منظور وأكثر من مزاج، وطبقاً لمناهج مختلفة.
 ٢. أن ما نحتاجه مغمور في ثنايا هذه الدراسات والآراء، أو في بطون اللغة والأدب.
 ٣. بعيداً عن ذلك، فإنه يمكن التعرف على ثقافة المتنبي من خلال أشعاره وحدها، إلا أن إغفال وجهات النظر النقدية في هذا الشعر قديماً وحديثاً - هو في حقيقته إسقاط لا يصح ولا يجوز لجهد فكري وإنساني استمر طوال ألف عام.
- وكان لابد من محاولة التوفيق بين العناصر الثلاثة، وبحيث لا يطغى عنصر على عنصر.

وقد قسمنا الدراسة إلى ثمانية فصول وخاتمة سريعة في الفصل الأول عرضنا بلمحة سريعة "ماهية الثقافة وتعريفها على المستوى الأنثروبولوجي والإنساني" ثم تحدثنا عن نشأة المتنبي وثقافته في الفصل الثاني؛ وفي الفصل الثالث تحدثنا عن التجديد عند المتنبي، ثم كان الفصل الرابع عن ألفاظ المتنبي ومعانيه... بعد مرور

سريع على ما أثاره الأقدمون من أفضلية اللفظ أو المعنى .. وأتبعنا ذلك بجزئية عن تجديده وابتكاره في مطالعه ، وحسن تخلصه ، وأيضاً شعره الملحمي والرمزي وكان لابد من أن نفرد الفصل الخامس لتأثر الشاعر بالفلسفة اليونانية وانعكاس ذلك على شعره .

وبالدرجة نفسها من الأهمية كان لابد من الحديث عن أثر مصر في شعر المتنبي والذي أفردنا له الفصل السادس .

وبالطبع ، لا يمكن الحديث عن شاعر بحجم أبي الطيب دون أن نشير إلى ما قبل عن سرقاته الأدبية ، والذي أفردنا له الفصل السابع .

أما الفصل الثامن فقد تحدثنا فيه عن العاطفة الدينية عند الشاعر ، والتي تعد جزءاً مهماً من ثقافته . وذلك بالطبع إضافة إلى ما أثير حول الشاعر من اعتناقه مذهب القرامطة.

* * *

وتجدر الإشارة هنا إلى عدة مراجع قيمة كان لها أبعد الأثر في إثراء هذه الدراسة كما نطمح ، منها : "المتنبي بين ناقيديه " ، وهي رسالة جامعية رصينة تناقش بشكل علمي وتتبع شامل دقيق كل الدراسات التي تحامل فيها أصحابها على الشاعر .

كذلك "كافوريات أبي الطيب" ، وهي دراسة نصية جادة وعميقة عن أشعار المتنبي في مصر . وأيضاً "الحكمة في شعر المتنبي" ، و "مع المتنبي" ، ثم ذلك العدد الخاص عن الشاعر من مجلة (المورد) وغيرها .

في النهاية ...

أرجو أن أكون قد وفقت إلى خدمة هذه الدراسة وحروجه بالصورة المأمولة
فإن أصبت فبعضون من الله وتوفيقيه ، وإلا فأمل التماس العذر ، فالولوج إلى ساحة
مثل ذلك الشاعر محفوف بالمخاطر والأشواك .. ويكفي شرف المحاولة

فأروق حسان

عضو اتحاد الكتاب

سوهاج - ٢٠٠٣

الفصل الأول :

مقدمة الثقافة

الثقافة هي الخبز الفكرى للفرد ، وبأهمية الخبز اليومى نفسها. والإنسان يعيش ويحيا بمقوماته الروحية والفكرية قبل المادية . وإذا ما كان الخبز هزيباً من كلا النوعين تداعت إنسانية الفرد ودب الوهن فى المجموع .

والثقافة ليست ترفاً ولا ميزة لفئة ، وبقدر ما يرتفع مستواها بقدر ما يرتقى المجتمع ويزدهر "نوع" الحياة .

واللغة هي أساس الثقافة ، وهى التى جعلت التفكير التصورى ممكناً وعميقاً . لأن الكلمات هي فى حقيقتها أفكار ، وكل كلمة تعبر عن فكرة. ونحن حين نرث الكلمات من المجتمع نرث مئات الأفكار التى أوجدت لنا ثقافة بدائية ساذجة أولاً ثم متحضرة مركبة ثانياً ولو أن القردة مثلاً عرفت اللغة لما تأخر نمو أدمغتها ولكانت قادرة على إيجاد حضارة وثقافة لها .

وقد أحس الإنغريك هذه الحقيقة – حقيقة أن الكلمة فكرة، والعكس فاشتقوا لفظة المنطق (لوجيك) من الكلمة "لوجوس" .

واللغة اختراع جماعى ، وبالتالي فإن كل ثقافة تقتضى وجود جماعة، ولكن العكس ليس صحيحاً – وهى تتعلق باستعداد الإنسان للتفكير المجرد وللقدرة على الكلام...لذا فإنها – أى الثقافة – خصيصة إنسانية .

ويكمن الوجه الإنساني في الثقافة في التعبير عن القيم والمثل ، وفي الجهد الذي يبذله الإنسان ليفهم محيطه ونفسه ، ولكي يعين الطريق الذي سيتبعه بين قوى الطبيعة ولكي يسيطر مع أمثاله عليها وعلى أعماله وتعبيره .

ولأن الإنسان هو الوحيد دون سائر المخلوقات الذي يمتاز بالتفكير والقدرة على الفهم والاتحاد في السلوك ، فقد ترتب عليه بذلك المسؤولية عن سلوكه. وبما أن هذه المسؤولية عظيمة فإن مصيره متوقف عليها وعلى تقديرها .

وتقدير المسؤولية إنما يكتسب بالتربية والتعليم اللذين هما عماد الثقافة وحظ الإنسان من الثقافة هو حظه من المدينة ، لأنها - أي الثقافة - من أهم عناصر المدنية إن لم تكن روحها . فالأمة المتمدينة هي الأمة التي تملك أكبر حظ ممكن من الثقافة . ولا غرابة إذن القول بأن قضية الثقافة هي قضية المدنية لأن رسالتها الأولى هي تحرير الفكر البشري من العوامل التي تؤخره ، وتحطيم جميع العراقيل التي تقف في طريق تقدمه ، وتمكينه من فهم المشاكل التي تعرض له وتوجيهه نحو السلوك القويم .

ولأن كانت الثقافة من عناصر الوحدة الفكرية للأمة ، فإن الاستقلال الثقافي أمر نسبي بين الأمم - ذلك لأن المدنيات الإنسانية المختلفة قد تحاكت وتمازجت خلال العصور ، فنشأ عن ذلك أثر مشترك من الثقافة بين الأمم .

ونشر الثقافة من العوامل الفعالة في إصلاح أي فساد في الخلق ، أو ضعف في الشخصية ، أو عجز عن تحمل المسؤولية ، لأن الثقافة - كما سبقت الإشارة - لم

تعد ترفاً عقلياً بقدر ما هي وسيلة حياة نستطيع أن ندرك قيمتها لو تصورنا انتشار وبراء في الورق يأتي على كل ما جمعت الإنسانية في خزائنها من كتب .

وإذا كانت المعرفة هي وسيلة السيطرة على الطبيعة والحياة وتسخيرها لخير الإنسان فإن - تدريب الذكاء هو خير وسيلة لتذليل الحياة بين يدي الإنسان

وأهم جهاز من أجهزة الثقافة وأعمقها أثراً هو الكتاب . وإن كان دوره قد تقلص في الآونة الأخيرة أمام التلفاز والسينما والمسرح، إلا أن الظواهر تشهد بأنه سوف يسترد مكانته في عالم تنبه أخيراً إلى خطر الأمية .

لكن...

ما هي الثقافة ؟؟؟؟؟

عندما نطرح هذا السؤال يفجئنا تباين الإجابات وتعددتها حتى إنه يمكن إحصاء مئات التعريفات لهذا المصطلح ، وهي تعريفات متنوعة ومتناقضة وواقرة العطاء لكنها أيضاً كثيرة الغموض والتلون ، ففي العلوم الإنسانية عامة لا تكاد توجد أحكام مطلقة تتوافر لها الصحة الكاملة، وأغلب ما يمكن الوصول إليه هو الاجتهادات العامة التي قد تخطئ أو تصيب ، وإن كان بعضها يحظى باتفاق عام فالتعاريف التي اقترحت لتعريف الثقافة في المائة سنة الأخيرة على الأقل بلغت حداً من التنوع يصعب معه الاتفاق على تعريف ، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ محمود محمد شاكر :

"والثقافة فاعلم تكاد تكون سراً من الأسرار الملتمة في كل أمة من الأمم وفي كل جيل من البشر. وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور معارف كثيرة لا تحصى

متنوعة أبلغ التنوع لا يكاد يحاط بها، مطلوبة في كل مجتمع إنساني للإيمان بها عن طريق العقل والقلب، ثم العمل حتى تذوب في بنيان الإنسان فتجرى منه مجرى الدم لا يكاد يحس به"

وإذا كان كروبر *Kroeber*، وكلوكهون *Kluckhohn* عالما الأنثروبولوجيا الأمريكيان قد صنفا - قبل ربع قرن - ما لا يقل عن مائة وستين تعريفاً للثقافة فإن التفرعات التي تبلورت بعد ذلك تزيد ولا شك في عدد هذه التعاريف المقترحة أمام هذا يستغرب أن يكتب إدجار مورين *E Morin* بعد مرور قرن على أول تعريف أنثروبولوجي للثقافة: "الثقافة بدهية خاطئة، منومة، ملغمة، خائنة" وقد اكتسبت كلمة "ثقافة"؛ أو *Culture* معناها الفكري في أوروبا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فالكلمة الفرنسية كانت تعنى في القرون الوسطى الطقوس الدينية - *Cultes* - ولم تعبر عن فلاحه الأرض إلا في القرن السابع عشر أما في القرن الثامن عشر، فقد عبرت عن التكوين الفكري عموماً وعن التقدم الفكري للشخص خاصة.. وهذا هو المعنى الموجود في المعاجم الكلاسيكية.

ولأن الثقافة خاصة بالإنسان العاقل ملازمة له، ولأن هذا الأخير يتطور ويتغير بحسب الحقب الزمانية والمراحل التاريخية، بحيث لا يمكننا أن نقول أن الإنسان هو في كل العصور: الحجري والبرونزي وعصر انبثاق الحضارات المعروفة، ثم العصور الحديثة لذا فإن الإجابة عن مفهوم الثقافة لا بد وأن تختلف باختلاف الأزمنة التي يطرح فيها السؤال، بل إن السؤال نفسه ليس - سؤالاً واحداً كما يبدو بل هو ينحل إلى عدة أسئلة من قبيل:

ما هي الثقافة التي بلغها الإنسان في هذه المرحلة من مراحل تطوره؟ .
وكيف يرى الإنسان هذه الثقافة؟.
وهل هي مجرد معلومات تقتنى ، وتراكم للمعرفة فقط ، أم هي مواقف
متحركة؟.

وهل هي ضرب من السلوك دون أن تكون سلوكاً؟.
نحن إذن أمام لفظ كثير التداول لكنه – وفي الوقت نفسه – شديد الغموض
بحيث والاحتمال كبير – يكون أى جدل حول الثقافة هو فى الحقيقة جدل بين
أشخاص لا يتحدثون جميعاً عن شىء واحد .
ومع ذلك ففى استطاعتنا أن نستخلص من المعانى المتعددة لمعنى هذه
الكلمة ... معنيين رئيسين :

أولاً: الثقافة كما يستخدمها علماء الاجتماع ، ويمكن تعريفها بأنها : ذلك
الكل المعقد الذى يشمل المعرفة والاعتقاد والفن والقانون والأخلاق والعرف وأية
قدرات ، كذلك جميع العادات الأخرى التى يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً فى
المجتمع .

ويقرب من ذلك التعريف الوارد فى قاموس أكسفورد من أنها :
الاتجاهات والقيم السائدة فى مجتمع معين ، كما تعبر عنها الرموز اللغوية
والأساطير والطقوس وأساليب الحياة ومؤسسات المجتمع التعليمية والدينية
والسياسية .

ومن المتفق عليه أن هذا هو أول تعريف أنثروبولوجي للثقافة ، وقد اقترحه الإنجليزى *Tylor* (١٨٢٢ – ١٩١٧ م) فى كتابه "الثقافة البدائية " . وقد أوحى هذا التعريف فيما بعد بتعريفات حافظت كلها على مضمونه. منها مثلاً ما استوحاه جاي روشير *Guy Rocher* من أن الثقافة هى : مجموعة مترابطة من أساليب التفكير والإحساس – والعمل المتشكلة إلى حد ما ، تتعلمها ويشترك فيها جماعة من الأشخاص يُكوّنون مجموعة خاصة متميزة

ثانياً: الثقافة بمعناها الإنسانى الرفيع ويمكن تعريفها بأنها: صقل الذهن والذوق والسلوك وتنميته وتهذيبه ، أو بأنها : ما ينتجه العقل أو الخيال البشرى لتحقيق هذا الهدف .

ويلاحظ هذا المعنى يرتبط بالأصل اللغوى لكلمة *Culture* فى اللغات الأجنبية وهى كلمة تعنى تعهد النبات وحرثه ورعايته حتى يثمر (منها جاءت كلمة "*Agriculture*" بل أنه يرتبط بهذا المعنى نفسه فى اللغة العربية ؛ لأن الأصل "ثقف" يحمل معنى التهذيب والصقل والإعداد . وهذا تكون الثقافة عملية رعاية وإعداد مستمر للعقل والروح البشرية) .

وفى تعريف آخر للثقافة نجد أنها فى جوهرها لفظ جامع يقصد بها الدلالة على شيئين أحدهما مبنى على الآخر، وهما طوران متكاملان:

• الطور الأول : أصول ثابتة مكتسبة تنغرس في نفس الإنسان منذ

مولده ونشأته الأولى حيث يشارف حد الإدراك البين جماعها كل ما يتلقاه عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلميه ومؤدبيه حتى يصبح قادراً على أن يستقل بنفسه وعقله . وتفصيل ما يتلقاه الوليد حتى يتعرع أو يراهق تفوت كل حصر بل تعجزه ، لكي تكون له (لغة) يبين بها عن نفسه – (معرفة) تتيح له قسطاً من التفكير يعنيه على من نشأ بينهم من أهله وعشيرته .

• الطور الثاني : فروع منبثقة عن هذه الأصول المكتسبة بالنشأة وهي

تنبثق حين يخرج الناشئ من إطار التسخير إلى طلاقة التفكير وإنما سُمِّيَتْ الطور الأول "إسار التسخير" لأنه طور لا فكاك لأحد من البشر منه منذ نشأته في مجتمعه فإذا بلغ مبلغ الرجال استوت مداركه وبدأت معارفه ويبدأ العقل عمله المستتب في الاستقلال بنفسه ، ويستبد بتقليب النظر في المباحثة وممارسة التفكير والتنقيب والفحص ، ومعالجة التعبير عن الرأي الذي هو نتاج مزاولة العقل لعلمه فعندئذ تتكون النواة الجديدة لما يمكن أن يسمى ثقافة .. وفي الدائرة نفسها ، دائرة تعريف الثقافة ، ما زلنا ندور ونتلمس .

يقول الدكتور سمير نعيم أن الثقافة : هي ببساطة أنماط السلوك السائدة في المجتمع البشري – وتشمل كذلك المعتقدات والمبادئ الأخلاقية واللغة والموسيقا

والفن. وغالباً ما تحدث تغييرات في الثقافة نتيجة تأثير خارجي. أما التطويع الثقافي :فهو عملية تقبل وامتصاص لعناصر ثقافة أخرى ، مثل ما يطرأ على ثقافة أحد المجتمعات المتأخرة نتيجة اتصاله الطويل بمجتمع ثقافته أكثر تطوراً ويقول الدكتور هادي نعمان الهيتي ^(٣) أن الثقافة : خصيصة إنسانية ، فهي تميز الإنسان عن سائر الحيوانات الأخرى التي تعتمد في طرق حياتها على غرائز لذا حافظت هذه الحيوانات على أسلوب حياتها دون تحوير يستحق الذكر منذ آلاف السنين بينما استطاع الإنسان أن يقلب طرق حياته ، لذا عد الإنسان حيواناً ثقافياً .

ويضيف:

إن الشخصية لا تتشكل مع ولادة الطفل ، بل يكتسبها بفعل تفاعله واتصاله ببيئته قبل كل شيء ، ولذا تتخذ شخصية الطفل الصيغة التي تطبعها بها المؤثرات الثقافية . أي أن شخصية الطفل تتحدد له بفضل ما يمتصه من مجمل عناصر الثقافة .. لذا فإن الشخصية هي وليدة الثقافة أولاً والتي يمكن أن تكون عاملاً من عوامل إنضاج نكاء الأطفال وعملياتهم العقلية ، أو عامل كبت لها يمكن للمجتمع أن يطفئها فتخمد أو يلهبها فتندمو .

ويرد كلارك ويسلر *Wissler* . C الأنماط الثقافية إلى تلك الاستعدادات الطبيعية عند الإنسان لتقبل الثقافة : أي أنه يرجعها إلى الغرائز والحوافز الفطرية

1- د . هادي نعمان الهيتي /ثقافة الأطفال/ سلسلة عالم المعرفة ، الكويت / العدد ١٢٣ مارس ١٩٨٨ م .

التي تدفع الإنسان دفعاً إلى المشاركة في الثقافة التي تسود المجتمع الذي يعيش فيه وهذا معناه أن الإنسان يؤسس الثقافة دائماً ويشارك فيها لأنه مضطر لذلك بطبعه ولا يملك عن ذلك بديلاً . وهذا في الواقع هو ما يعطى الثقافة صفة الاستمرار

والمعروف أن الذي يعطى الثقافة طابعها المميز ومقوماتها الخاصة هو وجود طائفة من السمات الرئيسة العامة التي تسود المجتمع وتفرض نفسها عليه والتي تعرف باسم العموميات *Universals* ، وتتمثل هذه العموميات الثقافية في: وحدة المشاعر ووحدة التقاليد والعادات والممارسات التي يشترك فيها كل أعضاء المجتمع كالشعائر والمعتقدات الدينية واللغة وما إليها من السمات التي تُعدُّ أسساً جوهرية في تكوين المجتمع

وهكذا ، لم يقتصر مفهوم الثقافة على تعدد تعريفاتها وتتابع الدراسات عنها بل ظهرت تخصصات عديدة تعنى بدراستها مثل :

علم الثقافة *Culturology* الذي يرى الثقافة مسألة قائمة بذاتها وأن دراستها تشكل مجالات استقلالية .

وعلم الأنثروبولوجيا الثقافية *Cultural Anthropology* الذي يركز على دراسة الثقافة وعناصرها وسماتها . بالإضافة إلى ظهور كثير من المفاهيم ذات العلاقة بالثقافة .

كالتراكم الثقافي *Cultural Accumulation* .

والصراع الثقافي *Cultural Conflict* .

والاتصال الثقافي *Cultural Contact*.

والتكامل الثقافي *Cultural Integration*.

والتغيير الثقافي *Cultural Change*.

وكما تعددت تعريفات "الثقافة" فقد كثرت الاجتهادات أيضاً في تعريف "المثقف". وربط بعضهم بين المثقف والتعليم، ورأى البعض الآخر أن المثقف شخص متميز في مجال المعرفة والأدب، يتفرغ للعمل الفكري، ويعبر عن آرائه ومواقفه بالكتابة. ورأى فريق ثالث توسيع نطاق التعريف بحيث يمكن أن يضم جميع من حصل على أي نوع أو كمية من التعليم الرسمي.

وعلى الجانب الآخر نرى آخرين لم يشترطوا التعليم كصفة ملازمة للمثقف ورأى هؤلاء أن - العبرة بالوعي والحس القومي وإدراك القضايا الرئيسة للمجتمع لأن الثقافة وعى يربط الإنسان بوطنه، بأمته، بمجتمعه، بمستقبل متطور أو بعيد ومن هذا المنطق فليس كل مثقف مثقف لأنه حصل على شهادة أو لأنه يُحسِنُ علماً أو حرفة ما (٣).

وقد تطرق النقاش إلى تقسيم المثقفين حسب خبراتهم وتخصصاتهم، بل حاول البعض تصنيف المثقفين على ضوء علاقتهم بالسلطة، فظهرت صفات مثل وعّاظ السلاطين، ومثقف الجماهير، والمثقف الشقي، والمثقف العميل. والمثقف الشهيد، والمثقف الأبله.... إلخ.

1- د. مصطفى عمر / مجلة شؤون عربية / العدد ٥٤ :

وتجدر الإشارة إلى أنه إذا كان الشعر في العالم القديم يعتبر جانباً من جوانب الثقافة وملحقاتها ، فإن الملاحظ أن الشعر العربي وبخاصة في الحقب الأولى من الحضارة كان في الصميم من الحضارة العربية . فنحن إذاً نحينا الشعر جانباً لا نكاد بين أيدينا وفي عقولنا شيئاً ذا بال ، ذلك لأن حضارتنا العربية القديمة وضعت في الشعر أكثر مقوماتها وأعمقها .

وإذا كانت هناك حضارات قامت على أساس من العمارة ، أو التعامل مع الملاحم والمسرحيات أو النحت والتصوير ، فإن الحضارات العربية قد اعتمدت على ما اصطلح على تسميته "بالشعر الغنائي" .

وبحضرنا قول أمرسطوطاليس :

(الشعر فطرة في الإنسان ، فالإنسان مفطور على حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة ، والميل إلى الإيقاع والانسجام ، والتعبير عن هذه الميول يولد في بادئ الأمر الشعر الارتجالي ، ثم كانت تقسيماته بعد ذلك .

* * *

من مجمل ما تقدم ، فإنه يمكن تلخيص الثقافة بشكل عام في :

١. أنها خصيصة إنسانية .
٢. أن درجات تقبلها تتفاوت تبعاً للاستعداد الفطري عند الإنسان
٣. أنها صقل الذهن والذوق والسلوك .

٤. أنها جماع ما يكتسبه الطفل ويتلقاه من أبويه وأهله وعشيرته

ومعلميه ومؤدبيه

٥. إنها ممارسة التفكير ومعالجة التعبير عن الرأي .

٦. إنها تفتقل من مجتمع أكثر تقدماً وتطوراً إلى مجتمع أقل تقدماً

٧. أن البيئة يمكن أن تكون من عوامل إنضاج ذكاء الطفل ويمكن أن

تكون عامل كبت له

وعلى ضوء ذلك ...

وفى حدود ما سنتعرض له ...

فهل يمكن أن نرصد نصيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفى الذى

اشتهر فيما بعد باسم أبى الطيب المتنبى من الثقافة بمفهوم عصره للثقافة ؟؟؟؟

وهل لنا أن نتعرف على ملامح الخطو الأول فى بيئته الضيقة

(المنزل / الأسرة) ، ثم البيئة الواسعة (المجتمع) بلمحه الاجتماعى والسياسى

والفكرى ، واللّتين شكلتا وجدان شاعرنا وصقلت موهبته الفطرية وجعلت منه

أفضل شعراء العربية كما يرى بعض النقاد ؟؟؟؟؟

الفصل الثاني :

المتنبي ..النشأة الثقافية

يتفق ثقة المؤرخين على أن أبا الطيب هو :أحمد بن الحسين ، ثم يختلفون فيما بعد هذا فيقول بعضهم : الحسين بن الحسن بن عبد الصمد ، ويقول آخرون ابن مرة بن عبد الجبار .

وقد تعود الناس أن يؤمنوا أن أبا الطيب رجل عريى خالص النسب ، ينتهى من قبل أبيه إلى " جعف بن سعد العشيرة" ومن قبل أمه إلى "همدان" وهما حيان من أحياء اليمن فيما يقول المؤرخون النسابون .

ومن الجائز أيضاً أن يكون من عرب الجنوب جعف الأب همدانى الأم ، لكن الذى لا شك فيه هو أن - ديوانه لا يثبت هذا ولا يؤكد ، بل لا يسجله ولا يذكره ومن يدري لعل ديوانه ينفيه ، ولعله ينفيه نفياً وهو إلى الصراحة أدنى منه إلى الإشارة والتلميح^(١).

إلا أن المؤكد أنه ولد بالكوفة سنة ٢٠٢هـ ، وفتح عينيه على الدنيا فى حى "كندة" وهو حى نزله المهاجرون العرب الذين نزحوا أيام الفتح إلى هذه البقاع وفى رواية على بن حسن البصرى^(٢) :سألت أبا الطيب أحمد بن الحسين المتنبى عن مولده فقال:ولدت بالكوفة سنة ثلاث وثلثمائة وهذا على وجه التقريب لا التحقيق ونشأت بالبادية والشام .

ونرى فى شعره ذكرياته فى هذا الحى "كندة" :

أمسنى السكون وحضرموتا ووالدتى وكندة والسبيعا

هل كان المتنبى يعرف أباه ؟؟؟؟.

وقال المؤرخون: نعم ، ولم يقل المتنبي شيئاً .

فليس في ديوانه ذكر للرجل الذي أنجب للقرن الرابع الهجري شاعره العظيم لم يمدحه المتنبي ولم يفخر به ، ولم يرثه ولم يظهر الحزن عليه حين مات . أكان ذلك لأنه عرفه ولم ير له خطراً ، ولم ير في ذكره ما يرفع من شأنه ويرد عنه كيد وحسد الحاسد ؟؟؟ .

أم لعله يزدرية ويكبر شعره عن أن يقف عنده مادحاً أو هاجياً ، أو نادباً أو راثياً^(٣) ؟؟؟ .

إننا لا نرى المتنبي دعياً مجهول الأب ولا شريف الحسب . ولكننا نراه رجلاً من أواسط الناس، عرفه أبو الطيب ورافقه . وقد وفر له هذا الأب بعض وسائل الرفاهية فبعث به إلى الكتاب كما يبعث غيره من أواسط الناس^(٤) ولا يخدعنا المتنبي عن هذا الأب عندما يقول :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البا حث والنجل بعض من نجله

ذاك لأن شهرة الأبناء لا تدل على شهرة الآباء ولا على علو قدرهم ، بل إن أبناء الخاملين كثيراً ما يبرزون أبناء السراة النابهين .

ويرى الدكتور شوقي ضعيف^(٥) أن إغفال المتنبي لأبيه ليس قاصراً على المتنبي وحده ، وإنما يشترك معه في ذلك كثير من الشعراء العباسيين الذين لا يشك في نسبهم العربي كالبحتري مثلاً ، الذي نجد في ديوانه قصيدة (تائية) افتخر فيها ببعض بنى عشيرته حتى أنه سماهم آباءً له وأجداداً . وهو لا يعنى الأبوة المباشرة إنما يقصد الفخر بمن تعالت أصواتهم بالأذان في موطنه . المهم أن ديوان البحتري

يخلو من الحديث عن أبيه أو الحزن عليه حين مات ، كما يخلو أيضاً من ذكر أمه والبكاء عليها حين ماتت . فهل نرتب على ذلك أنه كان متهماً في نسبه وأنه لم يكن يستطيع الحديث عن أبيه وجده لضعف أسرته ؟؟ .

كل ذلك لا نستطيع أن نقوله عن البحتري وبالمثل لا نستطيع أن نقوله عن المتنبي ومعروف أنه كان كثير الخصوم شديد الإحساس بعبقريته واستعلائه على أقرانه مما كان يملأ قلوبهم حفيظة وغيظاً ، ولو كان مدخول النسب لأتوه من هذه الثغرة مراراً وتكراراً .

ويزعم بعض المؤرخين أن أباه كان سقاءً في الكوفة . ويذكر أبو الحسن العلوي عن أبي المتنبي أنه كان " يستقى لنا ولأهل المحلة "

وقد أشار بعض الشعراء إلى هذه المهنة حين هجاه بقوله:

أى فضل لشاعر يطلب الفضل ل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء الحيّا^(٦)
وأيضاً قال عنه ابن لنك المصري^(٧) :

أعطيتم المتنبي فوق منيته فزوجوه برغم أمهاتكم
لكن بغداد جاد الغيث ساكنها نعالهم في قفا السقاء تزدهم

ويرى الملاح^(٨) أن أبا المتنبي كان دقيق الأطراف فلقبه الناس بلقب (عِيدان السَّقاء) بكسر العين والسين ، لأن الرجل كان طويل الأطراف دقيقها ولذلك

شبه بالعيدان التي تنصب ليقام عليها السقاء وسهل على حساده فيما بعد أن يصحفوا كلمة (عيان) إلى (عيان) ، و"السَّقاء" إلى "السَّقاء" .

والسؤال هنا :

هل تحتاج العبقرية إلى نسب تتكىء عليه ؟؟، ولكنها اعتبارات عصره ومفاهيمه .

وإن كان الغموض يحيط بنسب المتنبي ، إلا أن نشأته بالكوفة لا خلاف عليها. وكانت الكوفة من أجمل بلاد العراق ، وقد وصفها محمد العطاردي بمجلس عبد الملك بن مروان بقوله ^(٩) :

الكوفة سفلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البصرة وحرها. إذ أتننا الشمال ذهببت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور ^(١٠) ، وإذا ذهببت الجنوب جاءتنا ريح السواد وورده وياسمينه واطرنجه ، ماؤنا عذب وعيشنا خصب.

تلك هي الكوفة التي ولد بها الشاعر وأشرف منها على الدنيا .جو معتدل وماء عذب ، وجو تعبقه رائحة الورد والياسمين .

ومن خلال بعض أبيات وردت في ديوان المتنبي ، يرسم الدكتور زكي المحاسني ^(١١) صورة لصباه فيراه مهزول الجسم منتفض الأعصاب جدى الملامح سوداوى المزاج :

يجمعت بن جسم أحمد والسقـ	سم وبين الجفون والتسهد
كفى بجسمى تحولاً أننى رجلٌ	لولا مخاطبتى إياك لم ترن

ثقافته :

لا بد من الإقرار بداية أن المرء لا يصير أديباً لمجرد أنه قرأ وحصل فالأدب يعتمد بشكل رئيس على الموهبة التي تسير جنباً إلى جنب مع الثقافة والتمرين المستمر على فنون التعبير الأدبي المتباينة فالشاعر وإن درس فنون الشعر مثلاً فإن دراسته لتلك الفنون لن تصنع منه شاعراً . فهو شاعر قبل وقوفه على فن قرض الشعر . فالموهبة الشعرية مفطورة في الشاعر وليست مضافة إليه إضافة . صحيح أن الموهبة تحتاج إلى ما يعمل على صقلها وتهذيبها بالناسب من الخبرات والمعارف ، لكن تلك التغذية والرعاية لا يخلقان شاعراً ، بل تعملان فقط على تحسين وتجويد شعره .

وفي الجاهلية آمن العرب أن الشعر من عمل الشياطين ، وأن لكل شاعر شيطانه الخاص به يقول الشعر على لسانه... وفي ذلك يقول الراجز^(١٢) :

إنسى وإن كنت صغير السن وكان في العين نبوءة على
فإن شيطانى أمير الجن يذهب بى فى الشعر كل فن

والعرب وإن آمنوا بذلك ، إلا أنهم سرعان ما أضافوا إلى الإلهام والفطرة جهد الشاعر المثمر، وأيقنوا بطول الأناة وإمعان النظر والتدقيق الشديد مما يزيد الشعر وضوحاً وقوة .

ولهذا الشعور بالجهد فى قرص الشعر يقول الحطينة :

الشعر صعب وطويل سلّمه إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه

وقد كان المتنبي من هؤلاء الذين حباهم الله - سبحانه وتعالى - بالموهبة الشعرية ، صقلها - فى البداية- ترده على الكتاب حيث تعلم القراءة والكتابة وقرأ القرآن الكريم كله أو بعضه . وتلقى أصول الدين ، وتعلم اللغة العربية لغة وإعراباً وشعراً .

وقد كان للكتاب تأثيره الواضح على عقل الشاعر وقلبه ، ينبئنا به ديوانه الذى حفظ له مقطوعات من الشعر قالها وهو يختلف إلى هذه المدرسة .

ولنتأمل هذين البيتين :

لا تحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة يعلها فى كل وافي السبال

إننا نلمس فيهما النزوع المبكر إلى الحرب والقتال ، كما نلاحظ الضغينة التى تضطرم فى قلبه الغض فهل للبيئة الدامية التى كان يعيش فيها - نتيجة لإغارات القرامطة على الكوفة - نصيب فى تشكيل الوجدان الغض ؟؟؟.

ويقول الرواة أن المتنبي خرج من الكوفة مع أبيه إلى البادية فأقام بها حيناً ثم عاد منها وقد نما جسمه وعقله ، وفصح لسانه وأصبح فتى يملأ العين والأذن

ولسنا ندري متى ذهب أو الطيب إلى البادية ولا كم أقام بها . ويحدثنا العلوي أنه أقام بها سنتين . وقد روى ابن الأثير وغيره أن القرامطة أغاروا على الكوفة سنة ٣١٢هـ ، فلعل أبا الطيب خرج إلى البادية مع أهله حينئذ ^(١٣) .

ويقول ابن الأثير ^(١٤) : إن الفتى تزود بأزواد الفصاحة بتبديه المبكر أى رحيله إلى البادية - الذى اضطر إليه عندما فر به أبوه إليها من وجه القرامطة الذين أغاروا على الكوفة سنة ٣١٢هـ وسكفوا فيها الدماء وسبوا النساء ونهبوا الأطفال ففر الناس على وجوههم هولاً وفزعاً .

ومهما كانت المدة التى قضاها الصبى بالبادية فقد أفادت فى تكوين شخصيته ، وتلقيه السليقة العربية ومشخصات البداوة وما تشتمل عليه من شظف وقسوة ، وأذكت فى نفسه ما ترعرع فيها من مخايل الفروسية والجد .

وقد روى الخطيب عن محمد بن يحيى العلوي عن أبى الطيب أنه : صحب الأعراب فى البادية فجاءنا بعد سنتين بدوياً فحاً ^(١٥) .

كما أنه أخذ عن شيوخ البادية كثيراً من أوابد اللغة وشواردها . ورجع إلى الكوفة شاعراً حاذقاً عالماً باللغة وأسرارها . وتنقل بين بادية العراق إلى بادية الشام ، ومن البدو إلى الحضر ، ومن المدر إلى الوبر متردداً بين القبائل ومخايل العبقريّة مبشرة منه بخير كثير ^(١٦) .

وعن الأثر العميق الذى بصمته به البادية يقول صاحب بن عباد وهو أحد الذين حملوا على المتنبي حملة شعواء :

إنه رجل يتفاح بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء أو غدي لبن لم يطاء الحضر ولم يعرف المدر^(١٧) .
ومهما يكن من أمر ..

وسواء امتدت رحلته إلى البادية سنتين أو أكثر ...
فإن أثرها يبدو أبعد بكثير ما يظنه المؤرخون القدامى والمحدثون من كونها رحلة للتثقيف أو التريض أو الهروب من إغارات القرامطة . إن ملامح البادية ما فارقت قصيدة واحدة من قصائده . لقد مزج إحساسه بالبداءة وعمق إحساسه فيها كم زورة لك في الأعراب خافية أدهى وقد رقدوا من ديرة الذيب وقد صور ممارسته للبادية مقيماً ومرتحلاً :

أواناً في بيوت البدو رحلى وأونة على قنـد البعير
وهو هنا يصف طول ارتحاله وكثرة تروده على البوادي وإفراده " الأوان " في أول البيت ، وجمعه في شطره الثاني إشارة إلى أن ارتحاله كان أكثر من نزوله وطوال حياته لم تفارق البادية عقله وقلبه وشعره

ففيها امتد خياله .. وعلقت بذهنه بقاعها وخلواتها ، وجرت على لسانه لغتها في تصوير سلاحها وخیلها وإبلها وكأنه واحد من أهلها حتى بعد تجواله في البلاد ومجالسته الملوك والكبراء وأهل الترف والحضر .

ويرى صاحب " سيكولوجية الإبداع "^(١٨) أن الفنان أحياناً ما يكون مشدوداً إلى الخارج وإلى البعيد والغريب من مجتمعه حيث يجد أن ما يكتسبه هناك إنما

هو بمثابة المقومات والدعائم التي تشد من أزره في فنه المحلى . فهو باستيعابه لغير ما هو موجود في بيئته يكون قد بعث روحاً جديدة في فنه البيئى ويكون قد ساعد بالتهجين الفنى على شق خط جديد .

وبعد عودة المتنبي من البادية اشتهر بين أهل محله بحب العلم والأدب وبملازمته للوراقين الذين لم يكونوا مجرد تجار للكتب وإنما كانوا - فى أغلب الأحيان- أدباء ذوى ثقافة يسعون للذة العقلية من وراء الحرفة التي تتيح لهم القراءة والإطلاع ، وتجذب إلى دكاكينهم العلماء والأدباء^(١٩) .

كما أنه اختلف إلى حلقات العلماء ويبدو أنه فقد أباه فى تلك الحقبة فأكب على التعزى بالتزود بالعلم والثقافة .

وانعقدت يف تلك الحقبة صلة وثيقة بينه وبين شخص متفلسف متصل بالتصوف يكنى أبا الفضل. وله فيه قصيدة "ميمية" غلا فى مدحه بها غلواً شديداً مستعينا بنظرية الحلول الصوفية. ومنهم : عودة قرأ على أكابر العلماء فى عصره ومهم : الزجاج أبو إسحق والسراج أبو بكر. كما قرأ على نفطويه وابن درستويه ولم يترك كبيراً من علماء عصره دون أن يتصل به ويتلقى عنه .

وقد لازم الوراقين واتخذ كراريس يودعها شعره وخواطره ونظراته فيما يروقه أو لا يروقه من شعر معاصريه أبى تمام والبحترى وىشار وأبى نواس . وكانت هذه الكراريس عدته وزاده فى تجواله ورحيله .

وقد نبه بعض الباحثين المعاصرين عندما ناقشوا ما جاء بنسخة ديوانه المخطوطة بدار الكتب المصرية والتي كتبت بخط مغربي^(٢٠) حول لقائه بأصحاب المبرد، وقراءته على أكابرهم كأبي إسحق الزجاج وأبي بكر السراج وأبي الحسن الأخفش، ولقائه أصحاب ثعلب وقراءته على أبي موسى السكري، ونفطويه وابن درستويه، ثم لقائه بخاتم الأدباء عالم عصره أبي بكر بن دريد وقراءته عليه ولزومه له كذلك لقائه أكابر أصحابه كأبي على الفارسي وأبي القاسم عمر بن سيف البغدادي وأبي عمران موسى.

نقول أن هؤلاء الباحثين شكوا في لقاء أبي الطيب بكل هؤلاء واعتمدوا في شكهم على أن الزمن لم يسمح للشاعر بمعاصرة بعضهم كما لم يسمح له بالتلمذة على كثير منهم ذلك لأن المتنبي ولد عام ٣٠٢هـ بينما مات الزجاج سنة ٣٠١ أو سنة ٣١٠هـ، ومات أبو موسى الحامض سنة ٣٠٥هـ، والأخفش سنة ٣١٥هـ، وأب السراج سنة ٣١٦هـ^(٢١).

وإن كانت المراجع لم تضع أيدينا صراحة على شيوخ أبي الطيب وأئمته، فقد صورته لنا مغيراً على دكاكين الوراقين، يتلقف العلم أنى وجده، يجمع المؤلفات ويقضى الليل ساهراً يقلب أوراقها ويرتشف رضاها ويعقب عليها.

ويروى عن الأصفهاني في كتابه "إيضاح المشكل" أن المتنبي كان يكثر من ملازمة الوراقين وكان علمه من دفاترهم وأخبرني وراق – يقول الأصفهاني – كان يجلس إليه يوماً، قال :

ما رأيت أحفظ من هذا الفتى قط ، فقلت له : كيف ؟؟ قال كان اليوم عندي وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعي في نحو ثلاثين ورقة لبيعه ، فأخذ - أي المتنبي - ينظر فيه طويلاً فقال الرجل يا هذا أريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه في هذه المدة فبعيد ، فقل له المتنبي إن كنت حفظته فما عليك ؟؟. قال لك الكتاب ، قال فأخذت الدفتر من يده فأقبل يقلو إلى آخره ثم استلبه فجعله في كفه فعلق به صاحبه وطالب بالثمن ، فقال : ما إلى ذلك سبيل لقد وهبته لي (٢٢) .

وهذه الرواية وإن كانت المبالغة ظاهرة فيها ، توهم بالشهرة التي حظى بها المتنبي في صباه من قوة الحفظ ، ومثابرة على الدرس ، وحدة في الذكاء ، واختلاف إلى أماكن الثقافة لينهل منها كل ما يصادفه وكأنه يعد نفسه لليوم الذي يقف فيه على قمة شعراء العربية .

وقد هاجر المتنبي إلى بغداد - حاضرة الخلافة - طلباً للاستزادة من العلم وأخذ ينقض على كل ما كان بمساجدها من حلقات المعرفة وخاصة في اللغة والنحو والشعر ويلتهم كل ما بها التهاماً .

وإذا ما تجاوزنا عما يرويه مترجموا المتنبي وشرح شعره من أخبار تمكنه من الأدب واللغة وتطلعه فيهما ورافقناه في مناظرته المعروفة مع أبي على الحاشي التي استغرقت بضعة مجالس شهدها نفر من الأدباء واللغويين والنحاة، لأدركنا أننا أمام رجل ليست موهبته في الشعر هي كل ما يملك ، بل نحن بإزاء رجل تمثل

خلاصة الموروث الشعري عند العرب بدءاً بأصحاب لعلاقات ومن سبقهم ، وانتهاءً
بمعاصريه من شعراء زمانه .

لقد حفظ أشعارهم ووعى معانيهم ، وتتبع أخبارهم وما أخذ به بعضهم عن
بعض ، وسجل ما أخذ عليهم وانتقاداته لهم .
لقد أحاط علماً بما أخذ (٢٣) :

أبو نواس من ذى الرمة ومن جرير ومن الأعشى وغيرهم . وتتبع ما أخذ
النابغة من امرئ القيس . وما أخذ زهير من مهلهل . وما أخذ الأعشى من عمرو
بن قميئة ، وما أخذ عبيد بن الأبرص من المرقش الأكبر . وما أخذ الأخطل من
المسيب ابن علس . وما أخذ جرير والفرزدق من الأعشى . ثم أخذ أبو تمام من أبي
نواس ومن الأخطل .

كان يستظهر ذلك كله ويجادل خصمه معتمداً على ذاكرة حديدية . لم يرتجع
كتاباً ، ولم يعتمد بين يديه صحيفة ، فقط ذاكرة عجيبة وقدرة على الحفظ ومثابرة
على المطالعة .

وينقل الحسن بن سعيد رواية المتنبي بحلب أنه عاد من دار سيف الدولة آخر
النهار فقدم له شمعة ومرفع دفاتره ، وكانت تلك عادته كل ليلة حتى مضى من
الليل أكثره ثم نام (٢٤) .

وكان كما صوره معاصره أبو القاسم الأصفهاني يحفظ ديوانى الطائيين أبى تمام والبحتري ويستصحبهما فى أسفاره . إضافة إلى ما كان يستصعبه من مدونات ودفاتره التى كان أكثر إشفاقاً عليها لأنه انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً .

ويروون أن أبا على الفارسي - قد عُر عنه إكثاره من نقل اللغة وإطلاعه على غريبها حتى أنه لا يُسأل عن شيء إلا واستشهد له بكلام من النثر والشعر - سأل المتنبي : كم لنا من الجموع على وزن "فعلى" ؟ .

فقال المتنبي فى الحال : حِجْلَى وَظِرْبَى . قال الفارسي : فطالعت كل كتب اللغة ثلاث ليال على أجد لها ثالثاً فلم أجد .

وعلى ضوء ما سردناه ، فنحن لا نبالغ إذا قلنا أن ثقافة أبى الطيب المتنبي الأدبية ومنذ يفاعته كانت مكتملة . فهو لم يقل الشعر ركيكاً ضعيفاً فى حداته ولكنه بدأ قوياً واثقاً ذا خيال خصيب وقدرة على تطويع الوزن واللغة .. وانظر قوله

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدنى	وفرق الهجر بين الجفن والوسن
روحُ تردد فى مثل الخلال إذا	أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمى نحولاً أننى رجل	لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وتلك القصيدة التي جاء بديوانه أنه قالها في صباه تؤكد أننا أمام شاعر قوى
العبارة صحيح المعنى ، لُقِّن أصول اللغة تلقيناً كافياً ، وكيف لا وقد كان مصاحباً
وعلى الدوام لديواني أبي تمام والبحترى حتى أن الرواة يروون أنه لم يفارق هذين
الديوانين حتى قتل وفي هوامشهما بعض التعليقات والحواشي بخطه

الهوامش

١. د. طه حسين ، مع المتنبي ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٦ .
٢. عبد العزيز الميمنى ، زيادات ديوان المتنبي .
٣. مع المتنبي ، مرجع سابق .
٤. د . محمد عبد الرحمن شعيب، المتنبي بين ناقديه ؛ دارالمعارف مصر، ١٩٦٤ .
٥. د. شوقي ضيف ، فصول فى الشعر ونقده ، دارالمعارف ، مصر ١٩٧١ .
٦. وفيات الأعيان ، ج ١ ، طبعة بولاق .
٧. عبد الفتاح الملاح ، المتنبي يسترد أباه ، دارالتآخى ، بغداد ١٩٧٤
٨. السابق .
٩. د. زكى المحاسنى ، المتنبي ، دارالمعارف ، مصر، ١٩٦١ .
١٠. مادي من الحصى .
١١. المتنبي ، مرجع سابق .
١٢. عبد الفتاح السيد الدماصى ، النقد الأدبى التطبيقى ، المطبعة العربية ، مصر، ١٩٧٦ .

١٣. عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام ، طبعة الجزيرة ، بغداد ، ١٩٣٦.
١٤. الكامل فى التاريخ ، ج ٢ .
١٥. يوسف البديعى ، الصب المنبى عن حيثية المتنبى ، دار المعارف مصر ، ١٩٦٣ .
١٦. الثعالبى ، يتيمة الدهر ، دمشق ، ١٣٠٤ هـ .
١٧. الكشف عن مساوىء شعر المتنبى .
١٨. يوسف أسعد ، سيكولوجية الإبداع ، سلسلة دراسات أدبية ، الهيئة العامة للكتاب ، مصر ، ١٩٨٦ .
١٩. د. أحمد شلبى ، تاريخ التربية فى الإسلام ، دار المعارف ، مصر .
٢٠. ديوان المتنبى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٢٩
٢١. الصبح المنبى ، مرجع سابق .
٢٢. خزانة الأدب ، ج ١ ، ط القاهرة .
٢٣. الحاقى ، الموضحة .
٢٤. الصبح المنبى ، مرجع سابق .

الفصل الثالث :

التجديد عند المتنبي

كل شاعر عظيم ينبغي أن يكون شعره كله محاسن إلا ما يقع بين الحين والحين من هفوة أو تقصير أو اعتلال مزاج . وإذا كانت مساوئ الشاعر العظيم معدودة فمحاسنه ينبغي أن تأبى على العد . وهم الأديب الأول قديماً وحديثاً هو تقديم الجديد فيما يكتب أو يقول . فأهم مقومات العمل الأدبي هو أن يكون متسمّاً بالجدّة . فالأديب الذى يكتب كلاماً معاداً لا يعد أديباً مبرزاً . وحتى إذا انتحى الأديب إلى أحد الموضوعات المطروقة كأن يتعرّض للحب أو الحرية مثلاً فإن عليه أن يثبت أنه لا يلوك كلاماً مستهلكاً ، بل هو يقدم زوايا جديدة فى الموضوع المطروق والتجديد أو الابتكار من أسمى ما يقدمه العباقرة للبشرية ، ومن أجل ما يهدى إليها فى أية زاوية من زوايا الحياة ، لأنه نوع من السبق المعبّن على التقدم والنهوض ، ولون من ألوان كشف المجهول الذى هو غاية كل مفكر عامل على إسعاد بنى الإنسان .

وإذا كان الاهتداء إلى التجديد فى محيط الحياة المادية من الصعوبة بحيث لا يتيسر إلا للقليل الأفذاذ بعد الجهد المضى والنصب الطويل ، فإنه فى مجال الخواطر الأدبية وغيرها من سائر الدراسات أشد من ذلك صعوبة وأجل خطراً لعدم وجود شواهد بادية ترشد وتقود إليه .

من أجل ذلك يهتم النقاد بمعرفة الجديد لدى كل أديب ، لمعرفة الثروة الفنية الجديدة التى أضافها إلى رصيدنا الأدبي الذى جمعناه على تقلب العصور

والجديد والتجديد لا يمكن أن يكون مفهوما ذا معنى إلا أن ينشأ نشأة طبيعية من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حية من أنفس أهلها ، ثم لا يأتي الجديد إلا من متمكن النشأة في ثقافته ، متمكن في لسانه ولغته ، متذوق لما هو ناشئ فيه من آداب وفنون وتاريخ مغروس تاريخه في تاريخها وفي عقائدها ، في زمان قوتها وضعفها ، ومع المنحدر إليه من خيرها وشرها ، محسناً بذلك كله إحساساً خالياً من الشوائب ^(١) .

ونحن وإن كنا سنورد فيما بعد بعض المآخذ التي تسيء لشعر المتنبي إساءة نسبية كما أجمع النقاد ، فمن حقه علينا في مقابل أن نرصد له مظهراً من مظاهر عبقريته ، وهو قدرته على الخلق الفني المقنع والمثير للعواطف والنفوس ، والذي يؤكد ثقافته اللغوية والمعرفية ، واتساع بواعه في مجال الأفكار والمعاني .

وفي هذا المال يعترف غالبية الشعراء والنقاد لأبي الطيب بالبراعة وحسن السبق ، يقول العكبري : وقد أجمع الحذاق بمعرفة الشعر والنقاد أن لأبي الطيب نوادر لم تأت في شعر غيره وهي مما تخرق العقول ^(٢) .

ويسمع السرى الرفاء قول المتنبي :

وخضرت تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقاً

فيقول ^(٣) : هذا والله معنى ما قدر عليه السابقون .

ويقول أبو العباس النامي الشاعر^(٤) : كان قد بقى فى الشعر زواية دخلها المتنبي وكنت أشتهى أن أكون سبقتة إلى معنيين قالهما ما سبق إليهما ، أما أحدهما فقوله :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى	فؤادى فى غثاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهامٌ	تكسرت النصال على النصال
والآخر قوله :	

فى جحفل ستر العيون غباره	فكأنما يبصرن بالأذان
أما قوله :	

صوبن حين أردن أن يرميننى	نبلاً بلا ريش ولا بقداح
ورمين من خلل الستور بأعين	مرضى مخالطها السقام صحيح
فيقول عنه الدكتور طه حسين ^(٥) :	

نحن نلمح الاختلاف بين الحقائق المحكية والصور الحاكية ، وإظهار التشابه الدقيق بين هذه الحقائق وهذه الصور - هذا التشابه الذى ينشأ من دقة الصنعة وبراعة الفنان وهما سبيل المتنبي ومذهبه إلى إجادته الفنية .

وعن قوله :

له عسكريّ خيلٌ وطيرٌ إذا رمى بها عسكرياً لم تبق إلا جماجمه

يقول الدكتور طه حسين أيضاً^(٦):

إن المعنى الذى ألم به الشاعر قديم ، سبق إليه النابغة وأبو نواس وبعض القدماء الذين كانوا يزعمون أن سباع الطير قد عرفت بلاء المدوحين فى الحرب لذلك فهى تتبعهم لتأكل مما يقتلون . أما المتنبى فلم يجعل طير سيف الدولة "طفيلية" تتبعه لتعيش وإنما جعلها بعض جنوده ، فهى تتبعه محاربة لا متطفلة وليس هذا هو المهم إنما المهم هو أنه جعل للأمير جيشين جيش فى الأرض تحمله الخيل ، وآخر فى السماء يحمله الجو.

أما قوله :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأتنبى وبياض الفجو يُغرى بى

فيرى النقاد أنه من أجمل الأبيات العربية طباقاً وأدقها موزانة ، مع عذوبة اللفظ ورشاقة فى الصنعة . فهو لم يترك عنصراً فى الشطر الأول إلا جاء له فى الشطر الثانى بما يتوازن معه بحسب مكانه فى نظام هذه العناصر.

ويحصى الثعالبى فى موسوعته الضخمة - فى معرض الحديث عن المتنبى مجموعة من أشعاره تحت عنوان (حسن التصرف فى مدح سيف الدولة بجنس السيفية) نذكر منها :

عزّواك سيفَ الدولة المقتدى به فإنك تصلُّ والشدائدُ للنصلِ
كل السيوف إذا طال الضراب بها يمسها غير سيف الدولة السامِ
تهاب سيوفُ الهند وهى حدائد فكيف إذا كانت نزارية عُربا

ولا يقتصر تجديد أبى الطيب على موافقه من سيف الدولة ، ويمدنا الثعالبى أيضاً - بمجموعة أخرى من مبتكراته تحت عنوان (ومنها الإبداع فى سائر مدائحه) حيث نلمح فيها الكثير من المعانى الجديدة والأفكار المبتكرة التى سبق فيها الشاعر غيره من الشعراء :

كالبدْر من حيث التفقُّرأَيْتَه يهوى إلى عينيك نوراً ثاقباً
كالشمس فى كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقاً ومغارباً
كالبحر يقذفُ للقريب جواهرأُ جواداً ، ويبعثُ للبعيد سحائباً

ومن بدائعه حسن التشبيه بغير أداة ... كقوله :

بدت قمراً ومالت غصنَ بانٍ وفاحت عنبراً ورنّت غزالاً
ترنو إلى بعين الظبى مجهشة وتمسح الطلُّ فوق الوردِ بالعلم
عرفت نوائب الحدثان حتى لو انتسبت لكنت لها نقيباً
وأتيّت معتزماً ولا أسدٍ ومضيتُ منهزماً ولا وعلٍ

ويعجب الجرجاني من أولئك النقاد الذين ينعون على أبي الطيب بيتاً شد وكلمة ندرت وقصيدة لم يسعده فيها طبعه، وينسون محاسنه وقد ملأت الأسماع وشغلت الأفكار، وبخاصة تجديده الذي لم يستطع غيره من الشعراء أن يأتي بما يصلح لصاحبه ومجاورته^(٧).

وانظر قوله :

أتاك يكاد يجحد عنقه وتنقذ تحت الذعر منه المفاصلُ

إننا لا نستطيع في معرض تحليل هذا البيت أن نقف عند حد القول بأنه يصف الخوف والاضطراب والاستسلام والإقرار بالندم والاعتراف بقسوة مسبب هذا الخوف وقدرته على الإهلاك والانتقام. وهي المعاني المكرورة على ألسنة الشعراء من قبل. ولكننا هنا بإزاء معنى جديد أضافه المتنبي وابتكره وهو عجز الشخص عن استجماع أطراف نفسه حتى كأن أطرافه ينفر بعضها من بعض وأنها تنقم من نفسها لجرأتها على المخالفة والعصيان. ومثل هذا المعنى لم نسمعه من قبل لدى شاعر من الشعراء^(٨).

ويتعمق المتنبي أكثر وأكثر...

ويفطن إلى ما للميل إلى الشيء من أثر في سرعة الاستجابة إليه، وإلى أن أقوى الاتجاهات جذباً للنفس ما صادف هوى ولقى منها قبولاً واستعداداً.. وذلك في قوله :

إنما تنجح المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد

ولا نظن أن علماء النفس في العصر الحديث قد اهتموا إلى غير ما قاله المتنبي بعيداً عن أية مصطلحات علمية ، ودون أن يتخذ ما اتخذه من مقاييس أو تجارب وهل يخرج قول المتنبي عن أن يكون منطوقاً لقانون من قوانين علم النفس التربوي يقول :

إن كل استجابة ناجحة لمثير من المثيرات يجب أن تقوم على دافع نفسي فطري أو مكتسب بحيث تشعر النفس أن هذه الاستجابة ستحقق حاجة من حاجتها وتشبع ميلاً فيها^(٩).

ولم أجد من قدامى النقاد من تناول تلك الظاهرة من فن المتنبي تناولاً يحدد قيمتها ويكشف عن منزلتها ويبرزها في معرض الجديد لدى هذا الشاعر الذي كثرت فيه البحوث وتشبعت الدراسات .

كما أنني لم أجد أمثال هذه الخطرات لدى غيره من الشعراء على كثرة ما لهم من قصيد وما خلفوا لنا في دنيا الفن من قصيد^(١٠).

* * *

وإذا كان الجرجاني قد ساق في معرض الحاجة والمناظرة أن هذا البيت^(١١):

ومن سرَّ أهل الأرض ثم بكى أسى بكى بعيون سرها وقلوب

جديد فى معناه فقط ، فإن الجرجاني لم يتنبأ بأن الزمن سيكشف بعد عن مقياس نفسى تسلم به الأجيال وهو ما عرف بعد باسم (المشاركة الوجدانية) ، وهو ما أتى به أبو الطيب - عرضاً أثناء عزائه لسيف الدولة فى مولاه " يماك " (١٢) وما دمنا بصدد استعراض بعض الجديد والمبتكر فى شعر المتنبي ، فلا يفوتنا أن نذكر الانقلاب الذى أحدثه فى نظرية علمية تقول : إن الفرع يعزى إلى الأصل وأن ما فى الفرع من سمات المجد أو السمو إنما تعود فى الأساس إلى انتسابه لأصل ماجد سام . ويأتى المتنبي ليقلب القضية ويتخذ من عكسها سمة من أبداع سمات المدح وأرق مواقف الثناء ثم أنه يفعلها مؤيدة بدليلها المنطقى والفنى الذى لا يمارى فيه إنسان .. فيقول :

وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها فإن فى الخمر معنى ليس فى العنب
ويكرر نفس الفكرة فى قوله :
فإن تفوق الأنعام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال
إنها الدورة فن نفس الدائرة

واحتذاء المنهج نفسه من عرض الفكرة الجديدة المؤيدة بالدليل القوى الذى يزيكها ويدعمها ويزيل عنها الغرابة والاستنكار.
وفى الرثاء يخرج الشاعر على مألوف القوم فى عصره . فعهدهم به أن يكون باستدعاء البكاء ، أو التسجيل على الأكوان بالمصيبة ، أو بالإنكار على من لم يتفجع للفقيد من الجمادات ... لكن شاعرنا يترك ذلك كله ويملاً شعره بالحكم

إذا ما تأملت الزمان وصرفه تيقنت أن الموت ضربٌ من القتل

وما الدهر أهل أن تؤملَ عنده حياة وأن يشقائق فيه إلى النسل

وشعر الحكمة قديم في الشعر العربي ومنذ الجاهلية . لكن الجديد الذي أتى به أبو الطيب هو نقله الحكمة من محيط الحياة اليومية إلى محيط الرثاء . وهل مثل موقف الموت موقف يحتاج إلى الحكمة التي تزهد في الحياة وكل ما يؤمل فيها ؟؟؟ .

ولا نستطيع أن ننهي الحديث عن التجديد والابتكار في شعر أبي الطيب المتنبي دون أن نتعرض للأسلوب التمثيلي في شعره الذي يرى الأستاذ محمد كمال حلمي^(١٣) أن أسلوب المتنبي مليء بخصائص هذا الأسلوب الذي تظهر فيه الانفعالات النفسية وتكثر فيه حركات العواطف بصورة ملحوظة . وأن مظهر ذلك في أسلوبه : الاستفهام والتعجب والتأسف وترديد النداء كما في قوله

أصخرة أنا؟ مالى لا تحركنى هذى الكؤوس ولا هذى الأغاريذُ

كما يمتاز أسلوبه أيضاً إلى جانب ذلك بـ "التجسيم" وخلع صفة الأحياء على غير الأحياء بحيث نراها متحركة سمعية بصيرة يعتور ما يعتور النفوس من نعر ورضى وسخط .. كما في قوله مخاطباً الحمى :

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلتِ أنت من الزحام

وقوله مادحاً سيف الدولة حين ظفر ببني كلاب:

أتحسبُ بيض الهندِ أصلك أصلها وأنك منها ساء ما تتسوهم

إذا نحن سميناك خِلنا سيوفنا من التيه فى أعمادها تتبسم

مطالعة واستهلاله :

مقدمة القصيدة ، المطلع ، هى تلك الإثارة التى تنبه المتلقى ، وتبث فى القصيدة الحياة ، ومن ثم تهيؤها للاستجابة الشعرية التى يريد الشاعر التعبير عنها بعد أن عايشها وعانها .

ولا يتأتى ذلك للأديب الماهر إلا بإثارة النفس وأسرها ، بحيث تندفع إليه اندفاعاً ذاتياً نابعاً من كيائها وتظل تدور معه فى فكله حتى ينتهى من مداره دون أن تمل النفس من السير معه والتحليق فى مسراه .

وضابط المطلع الجيد ما كان بيناً واضحاً لا غموض فيه ، سهل المأخذ بلا تعقيد أو صعوبة فى الفهم . واشترطوا أيضاً أن يكون قوياً يسترعى الأسماع ، بالغ الجودة والإتقان بحيث يستهوى الألباب لمتابعة موضوعه .

وقالوا إن أول ما يحتاج إليه الشعر حسن المطالع والمقاطع . لأن حسن الافتتاح داعية للانشراح ، مطية النجاح . والشعر قفل أوله مفتاح فينبغى للشاعر أن يجود ابتداء شعره لأنه أول ما يقرع السمع . وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة وليجعله حلواً سهلاً وفخماً جزلاً^(١٤) .

كما اشترطوا أن يكون الذوق المرفه مصدرها وينبوعها ، فلا يكون فيه ما يشتم منه رائحة تشاؤم أو تطير أو تشمل ما لا يصح أن يوجه به الخطاب إلى

السامع . أو أن تكون فى عبارتها ما قد يثير فى ذهن السامع ما لا يريد الشاعر أن يتجه إليه ذهن .

والشاعر الحاذق يجتهد فى تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة إذ هى المواقف التى تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء^(١٥) .
وذلك صحيح إلى حد بعيد ...

فكم من مطالع جذبت السامع أو القارئ وحملته على متابعة الشاعر ، وكم من مطالع حدث منها العكس فنفرت وصرفت المتلقى عن القصيدة والشاعر والمتنبى له مطالعه التى ترضى أدباء البلاغة والمتلقى . وله أخرى قال عنها القدامى والمحدثون أنها رديئة لا تجوز .

لكن لابن رشيق رأى آخر . أنه يرى أن شاعرنا أربى على كل شاعر فى جودة هذه الأمور الثلاثة : المطلع والتخلص والخاتمة ، وإن جاء فى شعره على خلاف ذلك لا يدل على الطابع العام للشاعر ولكنه نتيجة لرغبة المتنبي فى الإغراب على الناس ثقة منه بنفسه وإدلالاً منه بنفسه^(١٦) .

ويرى صاحب "تنبيه الأديب"^(١٧) أن قول المتنبي :

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة فى المآقى

ما أندر المطالع وأحسنها لأنه لم يسمع بمثله ومعنى تفرد وإبداعه ، وهو من المطالع المضروب بها المثل فى عذوبة اللفظ وجودة السبك .

ومن مطالعه الجيدة قوله مادحاً سيف الدولة :

لكلّ امرئٍ من دهره ما تعودا وعاداتُ سيف الدولة الطعن في العدا

وقوله يصف انتصاره على الخارجين عليه:

طوال قنا تطاعنها قصار وقطرك في ندى ووغى يحار

وقوله في الرثاء :

إنى لأعلم واللبيب خبير أن الحياة وإن حرصت غرور

وقوله في التشوق :

شوقى إليك نفى لذيد هجوعى فارقتنى فأقام بين ضلوعى

وقوله في الغزل :

فدينك أهدى الناس سهماً إلى قلبى وأقتلهم للدارعين بلا حرب

ويسوق الجرجاني في " الوساطة " ، والثعالبي في " يتيمة الدهر " جملة من

المطالع التي حازت رضاها واستوفت في نظرهما شرائط الحسن .. مثل :

فدينك من ربع وإن زدتنا كرياً فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

المجد عوفى إذ عوفيت والكرم وزال عنك إلى أعدائك السقم

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثاني

تلك بعض النماذج الجيدة من مطالع أبي الطيب تحسب له ، لكن ليس معنى ذلك أن جميع أشعاره اشتملت عليها فذلك فرض لا يمكن تصوّره عقلاً ، لأن النفس البشرية مهما ارتفع مستواها الفني يستحيل عليها أن تراعى في كل آونة الأسس الجمالية التي تواضع عليها النقاد .

حسن تخلصه :

لا يعدو حسن التخلص أن يكون انتقالاً طبيعياً من المقدمة التي استفتح بها الشاعر قصيدته إلى الغرض الذي من أجله ساق القصيدة ومعنى الانتقال الطبيعي أن يتحايل الشاعر على ربط المقدمة بالغرض ربطاً مستوياً ، بحيث تبدو للقارئ كما لو كانت حلقة في سلسلة متصلة الحلقات لا انفصال بينها ولا انفصام وحتى يشعر القارئ أو السامع أن الشاعر انتقل من فكرة إلى فكرة أخرى هي منها ذات نسب قريب ووشيجة دانية كما لو كانت تلك الفكرة الجديدة نتيجة حتمية لما سبقتها ، يكاد العقل أن يقع عليها لو لم يصرح بها الشاعر ، ويشعر بالنفرة والغربة لو جاء إلى سواها .

وبالنسبة للمتنبي ، فإن حسن تخلصه موضع تقدير النقاد وإعجابهم . ويرى القيرواني أنه أكثر الشعراء استعمالاً لهذا الفن ، حتى أنه ما يكاد يفلت منه ولا يشذ عنه .

ويذكر الجرجاني في "الوساطة" من عجيب تخلصه قوله :

حَالٌ مَتَى عِلْمُ ابْنِ مَنْصُورِهَا جَاءَ الزَّمَانُ إِلَيَّ مِنْهَا تَائِباً

مرت بنا بين تربيها فقلت لها من أين جانس هذا الشادن العربا
فاستضحكت ثم قالت كالمغيث يرى ليث الشرى وهو من عجل إذا انتسبا
أما ما روه من أمارات الخروج على هذا الأصل العام الثابت لديه وعدوه من
الفرط والندرة فقوله :

ها فانظري أوفظني بى ترى حرفاً من لم يذق طرفاً منها فقد والا
علّ الأمير يرى دلى فيشفع لى إلى من تركتنى فى الهوى مثلاً
فقد تمنى أن يكون الأمير قواداً له (١٨) .
وقوله :

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله بعرانا
كما يذكر أيضاً من سوءات تخلصه:
أحبك أو يقولوا جر نمل ثبيرا وابن إبراهيم ريعا
قال القاضي : لعلك لا تجد فى شعره تخلصاً مستكرها مثله .
شعره الملقى :

تعنى كلمة " ملحمة " فى اللغة العربية : الواقعة العظيمة ، وقيل موقع القتال
أما معناها الذى اصطلحنا أن يكون مقابل لفظ (Epic) فى الأدب العربى فهو
القصيدة التى اتسمت بالحديث عن الأبطال .

وهى تعتمد على الخيال المجنح ، أو تصور بطولة المحاربين ، وتتميز كذلك
بالطول ، وتحكى قصص الأحداث التاريخية (١٩) .

وقد عرف شعرا الملاحم فى الجاهلية وبعد الإسلام . لكن هؤلاء الشعراء لم يفرغوا لهذا الفن ولم يبرعوا فى وصف المعارك كما برع المتنبي ، لأن أغلبهم لم يحضر تلك الوقائع والملاحم على عكس شاعرنا . فوصفوا ما أداه السماع وأبو الطيب وصف ما أداه العيان لأنه كان يرافق سيف الدولة فى ملاحمه مع الروم والبيزنطيين .

ويرى ابن الأثير أن المتنبي اختص بالإبداع فى وصف مواضع القتال ، وأنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأن طريقه فى ذلك يضل بسالكه .

ويقول أيضاً :

إنه - أى المتنبي - إذا وصف معركة كان أشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلوا (٢٠) والحق أننا لم نجد من قدامى النقاد من حاول النيل من هذه الخاصية . ولم نجد من تعقب هذه الدراسات فأثبت عواراً فيها ، أو أبان عن خلل بها اللهم إلا ما رأيناه للحاتى من محاولة إنكار كل ما للشاعر من ميزة وفضل .

والقصائد التى كرسها المتنبي لكل واحدة من حملات سيف الدولة تسمح لنا بأن نتابع على الخريطة سير الجيوش . ونرى أحياناً أن مواقع منطقة الجبهة العربية / البيزنطية التى أشار إليها أبو الطيب فى أشعاره لم يذكرها أى مؤرخ أو أى جغرافى قبله بل وبعده .. والفضل يعود إليه فى تعيين هذه المواقع ولو على سبيل التقريب . ويذكر ياقوت الحموى فى " معجم البلدان الجغرافى " المتنبي كل لحظة

وأحياناً لا يذكر إله . فهو إذن مصدر استعلامات عن طبوغرافية المناطق التى
اخترقها الأمير الحمداى (٢١)

ومن روائع قصائده الملحمية تلك الملحمة الميمية التى يصف بها إحدى معارك
سيف الدولة :

أتوك يجرون الحديد كأنهم سرورا بجياد مالهن قوائم
إذا برقوا لم تعرف البيض منهم ثيابهم من مثلها والعمائم

ويذهب الدكتور عبد الوهاب عزام إلى أن قصائد المتنبى فى وصف حروب
سيف الدولة الداخلية والخارجية تفوق الملاحم اليونانية واللاتينية والهندية
والفارسية (٢٢).

وهكذا أصبح المتنبى المؤرخ الرسمى للأمير الحمداى . فنحن حين نقرأه يطير
بنا الفكر أحياناً إلى لويس الرابع عشر وإلى عبور الراين لقد صلب الشاعر سيده
فى جميع غزواته ، وليس شمة داع يدعونا إلى الاعتقاد بأن المتنبى حين سرد الوقائع
غرق فى المبالغات وجاوز كل واقع فى موقفه الحربى . إن هذه الحقيقة تمنح أبياته
على كل حال - رنين طبول الحرب التى تواكب نغماتها أحياناً أبواق كورنى (٢٣)

الهوامش:

١. محمود محمد شاكر / المتنبي / رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا / دارالمدنى
بجدة / ١٤٠٧هـ.
٢. يوسف البديعى / الصبح المنبى عن حيثية المتنبي / دارالمعارف /
مصر ١٩٦٣.
٣. السابق.
٤. نفسه.
٥. مع المتنبي / دارالمعارف / مصر / ١٩٧٦.
٦. السابق.
٧. الوساطة.
٨. د. محمد عبد الرحمن شعيب / المتنبي بين ناقديه / دارالمعارف / مصر /
١٩٦٤.
٩. انظر (الدوافع النفسية) للدكتور مصطفى فهمى / دارالمعارف / مصر.
١٠. المتنبي بين ناقديه.
١١. الجرجانى / الوساطة بين المتنبي وخصومه.
١٢. المتنبي بين ناقديه / مرجع سابق ؟

١٣. عباس العقاد وآخرون / أبو الطيب المتنبي .. حياته وشعره / مجموعة

مقالات / المكتبة الحديثة / بيروت / ١٩٨٢ .

١٤. العمدة / باب المبتدأ .

١٥. الجرجاني / الوساطة .

١٦. العمدة / ج ١ .

١٧. عبد الرحمن باكثير المكي / مخطوط بدار الكتب المصرية .

١٨. الصبح المنبي / مرجع سابق .

١٩. محمد مندور وآخرون / آراء حول قديم الشعر وجدیده مجموعة

مقالات / سلسلة كتاب العربي / الكويت / العدد ١٣ أكتوبر ١٩٨٦ .

٢٠. المثل السائر .

٢١. المتنبي والحرب البيزنطية / ماريوس كنار / مقال بمجلة المورد / العراق /

العدد الثالث / المجلد السادس / ١٩٧٧ .

٢٢. ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام / طبعة الجزيرة بغداد / ١٩٣٦ .

٢٣. كودفرا أدومبين / المتنبي وأسباب مجده / مقال بمجلة المورد / مرجع سابق

الفصل الرابع :

ألفاظ المتنبي ومعانيه

اهتم الشعراء منذ القدم بالأناقة في نظم الشعر.. وهذا ما حمل النقاد وعلماء
البيان على إطالة الجدل والذهاب مذهبين في قضية اللفظ والمعنى . والنظر إلى
الشعر من وجهتيه اللفظية والمعنوية . فجعلوا للفظ كما جعلوا للمعنى أحكاماً
بلاغية خاصة ، وعنها نشأ ما عرف عندهم بالصناعة اللفظية والصناعة المعنوية
وهكذا انفرد اللفظ عن المعنى . فقدم بعضهم الأول ، وجعل بعضهم
الصدارة للثاني ، وكان لكل فريق حججه وأسانيده .

يقول عبد القاهر الجرجاني :

وماذا في اللفظ لولا المعنى ؟؟ وهل الكلام إلا بمعناه؟؟^(١) .

ويقول ابن قتيبة :

وضرب منه - أي الشعر - حسن لفظه ، فإذا أنت فقتشته لم تجد هناك
طائلاً^(٢) .

وقد دافع عن هذا الرأي - أفضلية المعنى على اللفظ - بعض كبار الباحثين
كعبد القاهر الجرجاني وابن جني واعتنقه كثير من الشعراء .

وعلى الجانب الآخر قد فريق اللفظ على المعنى .. وهو فريق أكثر عدداً وأكثر
شيعة . يقول القيرواني : إن اللفظ أعلى من المعنى ثناً وأعظم قيمة وأعز مطلباً
فإن المعاني موجودة في طباع الناس يستوى في ذلك الجاهل والحاذق ، ولكن
العمل على جودة الألفاظ وحسن السبك وصحة التأليف ألا ترى لو أن رجلاً أراد في
المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث ، وفي الإقدام بالأسد ، وفي

المضاء بالسيف ، وفى العزم بالسيل ، وفى الحُسْن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه المعانى فى أحسن حُلَاهَا من اللفظ الجيد الجامع للرقّة والجزالة والعذوبة والطلاوة لم يكن للمعنى قدر (٣) .

ويقول ابن خلدون فى مقدمته :

وصناعة الكلام نظاماً وشعراً إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى . إنما المعانى تتبع لها وهى أصل . والمعانى موجودة عند كل واحد وفى طوع كل فكر له منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج إلى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة وهو بمثابة القوالب للمعانى (٤) .

والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ (٥) .

ويقول الأستاذ عباس حسن (٦) :

ومن البديه أن نقول أن المعنى لا يتجسم ولا يبرز نفسه ولا يمتد التأثير من ذاته وإنما يبرز فى قوالب من الألفاظ تظهره وتحدد معالنه وتمده بالتأثير . فإلى اللفظ يرجع الفضل الأكبر فى ظهور المعنى وبروزه . وإلى جمال اللفظ وحسن اختياره والبراعة فى أدائه يرجع الفضل الأول فى تأثير المعنى فى العقول والنفوس .

ويتفق الدكتور زغلول سلام (٧) مع هذا رأى فيقول :

وهذا التصور لاستقلال اللفظ عن المعنى لا يتفق فاللفظ فى أصله رمز المعنى ولا يقوم اللفظ وحده صوتاً دون معنى ، أى لا يمكن - على صورة من الصور - فصله

عن مدلوله ، أو حتى تصور هذا الفصل ذهنياً كالفصل بين الروح والجسد في خالة الموت .

ويقول الإمام عبد القاهر الجرجاني ^(٨) مثبتاً مبدأين هامين :

الأول : أن البلاغة لا تقوم على اللفظ بذاته ولا على المعنى بذاته ، بل على طريقة نظمهما معاً في الجملة .

الثاني : أن النظم العالي لا يعنى مجرد الإجابة في وصف الألفاظ والعبارات بل هي أن يكون للكلام تلك الروعة المعنوية التي تمس القلوب إذا لا يرتفع بتركيبه عن المعتاد ، ويوحى بمعان وراء المعانى . وهذا مسلك دقيق لا يسلكه إلا من أوتي ملكة التمييز العالي من أساليب التعبير . وقد سبق عبد القاهر الجرجاني بهذا التفريق بين المعنى ومعنى المعنى ما وصل إليه كبار الأوروبيين المحدثين في هذا الشأن . فالجنس الأدبي بهذا المفهوم لم يعد شكلاً فحسب ولا مضموماً فحسب إنما هو تضيئة جيدة بين الشكل والمضمون والصياغة التركيبية للكلام .

أما من قضية الشعر...

فسنورد هنا آراء بعض النقاد القدامى ، فنحن حيال شاعر قديم ومن الأفضل الاستعانة برأى معاصريه لأنهم أقدر على تقييم الشعر في تلك الحقبة ، ذلك فضلاً عن أن اللغة في أطراد استعمالها ووضوح مدلولاتها تتضمن إلى معانيها البيئية دقائق لا تستطيع المعاجم تفسيرها ، ومرامى تختلف باختلاف الزمان والمكان ثم إن في عرض آراء النقاد من السلف فائدتان أخريان :

- ١- الاستعانة بنظرهم وقد كانوا أكثر منا فراغاً للادب واختصاصاً به
- ٢- أن معرفة آراء هؤلاء النقاد في الشعر تدخل في التاريخ الأدبي للشاعر فضلاً عن الحقبة الزمنية التي عاشوا فيها.

يقول الأمدى^(٩):

وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التاني ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام
ووضع الألفاظ مواضعها وأن يورد المعنى اللفظ المعتاد فيه المستعمل في أمثاله . وأن
تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لعناه . فإن الكلام
لا يكتسى البهاء والروث إلا إذا كان بهذا الوصف . ويقول الجاحظ^(١٠):

إن أجود الشعر ما رأيت ملاحم الأجزاء سهل الخارج ، فتعلم بذلك أنه قد
أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً .

ويقول ابن سنان الخفاجي^(١١):

ومن الصحة صحة النسق والنظم وهو أن يستمر - أي الشاعر - في المعنى
الواحد ، فإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقاً
بالأول وغير منقطع عنه .

ويقول ابن طباطبا الطوي^(١٢):

وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته ، ويقف على حسن
تجاورها أو قبحه فيلائم بينها لتنظيم له معانيها ويتصل كلامه فيها ، ولا يجعل بين
ما قد ابتدأ وبين تمامه فصلاً من حشوليس من جنس ما هو فيه فيتسى السامع

المعنى الذى يسوق القول إليه ، ولا يبعد كلمته عن أختها ، ولا يحجز بينها وبين إتمامها بحشويشينها

ويقول أبو هلال العسكري (١٣):

إن جهد الشاعر وصنعتة مما تزيد الشعر وضوحاً وقوة . وإذا عمل قصيدة فهدبها ونقحها بإلقاء ما غث من أبياتها ورث ورنل ، والاقتصار على ما حسن وفخم بإبدال حرف منها بآخر أجود منه حتى تستوى أجزاؤها وتتضارع هوائها وأعجازها . وينبغي أن تجعل كلامك مشتبهاً أولاً بآخره ، ومطابقاً هادية لعجزه ولا تتخالف أطرافه ولا تتنافر أطواره وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها ومقرونة بلفقها .

ويبرز ابن قتيبة حسنات الشعر فيجملها في (١٤):

سهولة اللفظ – إصابة التشبيه – جودة القوافي – تجنب الضرورات والفضول والتكرير والإفراط فى المبالغة والأخطاء المعنوية والعروضية .

أما المرزوقى فيرى (١٥):

وجوب قيام العمود (الشعرى) على عدة أركان نلخصها فيما يلى :

فى المعنى : أن يقبله العقل الصحيح ، أى يكون مستقيماً لا يخالف المعقول

فى اللفظ : أن يسلم من الهجنة .. أى يكون مألوفاً مستعذباً .

فى الوصف : الإصابة وحسن التمييز .. أى أن يكون صادقاً مناسباً للموصوف

في التشبيه : أن يقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ولا ينتقص عند العكس .

في الاستعارة : أن يكون المستعار مناسباً للمستعار له ، ويكتفى بذكر المستعار فقط في التحام أجزاء الكلام . وأن يكون الكلام منسجماً لطيف التركيب حسن التوقيع .

في القافية : وأن يكون مما يشوقه اللفظ والمعنى .

ثم يضيف : بأن هذه الخصال هي عمود الشعر فمن لزمها بحق وبنى شعره عليها فهو الشاعر المفلح .

وفي عصر المتنبي كانت اللغة بتفريعاتها الدقيقة تمثل القيمة الثقافية الأولى في المجتمع ، يحرص عليها الجمهور ويحرص عليها الحكام لما لها من صلة وثيقة بالعقيدة الدينية ومحورها القرآن الكريم ، وبالشعور القومي الذي كان الدافع الديني يغذيه ويكرس مقوماته .

فعصر المتنبي كان عصر ازدهار علوم اللغة ونضج مباحثها ووفرة مصنفاتها وكان يحفل بطائفة من كبار اللغويين لم يحظ بهم أي عصر من عصور العربية . كان فيه أبو علي الفارسي وأبو سعيد السيرافي وأبو الحسن بن خالويه وعلي بن عيسى الرماني وأبو الفتح وأبو الطيب اللغوي وغيرهم مما لا يتسع المجال لاستقصائهم

ولأن الأديب دوماً ابن عصره .. فقد كان المتنبي مر النفس صعب الشكيمة جاداً مجداً . نشأ مؤهلاً لأن يكون الشاعر المثقف العالم بلغته المحيط بأطرافها ودقائقها ، مهياً لأن يناظر فيها علماءها ويحاورهم ويجادلهم وليس غريباً إذن أن يفاجئنا في شعره بثروة لغوية واسعة تتجاوز حدود الفصح إلى الغريب الشارد الذي لا تكاد تجد له صدى في غير كتب (الغريب) وكتب (النوادر) . ولعل قمرسه في دراسة اللغة وامتلاك ناصيتها أعطاه إحساساً بأحقيته في أن يصنع لنفسه لغته قياساً وإن لم ترد عن العرب سماعاً فهو يشق اللفظ الذي يؤدي به المعنى على مقتضى القياس وإن ضاقت دائرة هذا القياس أو منعه المتزمتون من النحويين

ويذكر الحموي - وهو من هو خصومة لأبي الطيب - أنه ^(١٦) : لما علوته بالكلام قال : يا هذا مسلمة إليك اللغة ، فقت : وكيف تسلمها وأنت أبو عذرتها ومن نصابها وأولى الناس بالتحقق بها والتوسع في اشتقاقها والكلام على أفانينها ، وما أجد أولى بأن يسأل عن لغته منك .

وفي مصر قرىء على أبي الطيب كتاب " المقصور والممدود " لأبي العباس بن ولاد فصحه وأخذ على مؤلفه غلطات ^(١٧) .

والذي لا ريب فيه أن أبا الطيب المتنبي بلغ من العلم باللغة وغريبها وشواردها ، ولقن عن أهل البادية منها ما لا نعلمه لشاعر آخر . وقد بلغ في هذا أن عُدَّ في عصره من علماء اللغة وإن غلب الشعر عليه .

وقد أعرب هو عن شغفه وولعه بالقراءة وأنسه بالكتب في قوله :

أعز مكان في الدنيا ظهر سايج وخير جليس في الزمان كتاب

ويتفق غالبية النقاد على أن المتنبي كان من شعراء المعاني ..

وقد غرِبت الأشعار قديمها وحديثها ، وتأملها تأمل المنتقد فما وجدت ما لأبي
تمام والتمنبي في باب المعاني ^(١٨)

كما وفق التمنبي بين الشعر والفلسفة ، وجعل أكثر عنايته بالمعنى ، وأطلق
الشعر من القيود التي قيده بها أبو تمام وشيعته ، وخرج به عن أساليب العرب
التقليدية ، فهو إمام الطريقة الابتداعية في الشعر العربي ^(١٩) .

ورغم الاتفاق على عناية المتنبي بالمعنى ، إلا أن النقاد اختلفوا في ألفاظه
اختلافاً واسع المدى . فمنهم من ينزهه عن مظنة العيب ويرى أن ألفاظه بلغت من
الدقة وتحسين الاختيار منزلة يستحيل عليك معها أن تغير كلمة من كلماته بسواها
ثم يتبقى للأسلوب طلالوته وزقته التي كانت له قبل التغيير ، وهذا رأى أبى العلاء
المعنى . ومنهم من يرى أنه رجل يتفاهص بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة حتى
كأنه وليد شيء أو غدي لبن لم يطق الحضر ولم يعرف المدر .

وينجب الإقرار بأنه ما من شاعر عرف بكثرة الخصوم مثل ما عرف المتنبي
فقد نأىء ونال عليه خلق كثير تشبههم إلى ذلك عوامل شتى وأسباب متباينة . وقد
لفتت هذه الظاهرة النقاد القدامى والمحدثين . أما القدامى فاكتفوا بتسجيلها ولم
يحاولوا تفسيرها . وأما المحدثون فقد أرجعوها إلى طائفة من العوامل بعضها
يتصل بأخلاق الشاعر وخصاله ، وبعضها يتعلق بشعره ، أو بما اتسم به ذلك الشعر
من سمات في المعنى والتعبير .

ويقول الدكتور إحسان عباس^(٢٠) : وقد صدم المتنبي الذوق مرتين ، مرة بشخصه المتعالى المتعاضم ، ومرة بجرأته في الشعر. جرأته التي تركب المبالغة حتى تمس العقيدة الدينية وتنتحل آراءً فلسفية غريبة ، وتستخف بأصول اللياقة والعرف في مخاطبة الممدوحين ، وأخيراً تصرفه باللغة تصرف المالك المستبد ..

والمتتبع للنقد الذي وصل إلينا حول المتنبي يجد أن أكثره هو النقد الصادر عن خصومه وشائئيه . ومن الغريب أننا نسمع بأنصار أبي الطيب ونرى الكتب مملوءة بالرد عليهم ، ولكننا لا نجد أثراً مكتوبة في الدفاع عن صاحبهم ، وكأنهم اكتفوا بما كانوا يذيعونه في المجالس ، على حين تلاحقت الكتب في العراق وفارس ومصر للرد عليهم . وليس في الحاليين تكافؤ ، فأنصار المتنبي يضيعون جهودهم في أحاديث المجالس والحلقات ، بينما يخلد خصومه مذمته في الكتب والرسائل .

والواقع أن أهم ما يميز المتنبي عن جمهرة شعراء العربية الآخرين أن قارئ ديوانه في جملة غفيرة من المواضيع كثيراً ما يواجه بالإرهاق والدوار قبل أن يهتدى إلى معرفة فكرة البيت الشعري والمعنى الذي قصد إليه الشاعر ، وقد لا يهتدى إلى مراد الشاعر ما لم يستعن بالمصادر القديمة التي توفرت باسم " المشكل في شعر المتنبي " ، وسماه نقاده " التعقيد في شعر المتنبي " حتى أن الواحدى يقول :

إن معانيه خفيت على أكثر من روى شعره من أكابر الفضلاء والأئمة العلماء حتى الفحول منهم والنجباء^(٢١) .

وقد أصاب بعض أدبائنا حين نقل رأى الواحدى وأردفه بقوله أن المعانى الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفية أو القضايا التعليمية التى تقتضى دقة النظر والجهد فى فهمها، إنما هى معانٍ طبيعية تدركها البداة بأدنى رمز.

ولعل فى تعدد المحاولات التى بذلت قديماً فى دراسة وتفسير أشعاره تقدم لنا دليلاً واضحاً على تميز الشاعر على سواه فى هذه الظاهرة - الغموض - التى تشكل سمة خاصة به، أفرزها تكوينه الثقافى ومزاجه الخاص.

ومصطلح "الغموض" و "الإبهام" وما يتصل بهما من ألفاظ مثل التعقيد والمعاظلة هى مصطلحات استعملها النقاد العرب وأسهبوا فى الحديث عنها فى مؤلفاتهم. كما اتخذوا من وجودها فى الشعر موقفاً محدداً. يقول عبد القاهر الجرجانى ملخصاً موقفه من ظاهرة التعقيد فى الشعر:

وأما التعقيد فإنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذى يمثله تحصيل الدلالة على الغرض، حتى احتاج القارئ أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه عن غير طريق، كقول المتنبي:

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

وانما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر رائد على المقدار الذى يجب فى مثله وكذلك بسوء الدلالة، وأودع المعنى لك فى قالب غير مستو ولا مملس، بل خشن مضرس، حتى إذا رمت إخراجه منه عسر عليك، وإذا خرج.. خرج مشوه الصورة ناقص الحسن.

ومن أهم ما يؤخذ على شعر أبي الطيب المتنبي: استكراه اللفظ، وتعقيد المعنى، واستغفال الغريب، وقبح بعض المطالع، ومخالفة القياس، والتفاوت في شعره، والخروج من المبالغة إلى الإحالة كقوله:

ولا الضعفُ حتى يبلغ الضعفُ عفه ولا ضعفُ ضعفِ الضعف بل مثله ألف:

وقوله:

وفاؤكما كالريح أسجاء طاسمة بأن تسعدوا والدمع أسفاه ساجمه
ولو سألنا المتنبي عن الدافع له على مثل هذا القول لقال أنه أراد أن يتعجب سامعيه.

ويقول:

شيم الليالي أن تشكك ناقتي صدرى بها أفضى أم البيضاء

ويقول:

فرووس الرماح أذهب للغيب حظ وأشفى لغل صدر الحقد
وهو هنا يشتق من الرباعي "أفضى" .. "يفضى"، و"أذهب" "يذهب"، صيغة تفضيل وشرطها عند النحاة أن يكون فعلها ثلاثياً.

ويقول في قصيدة أخرى:

فدى من على الغبراء أولهم أنا لهذا الأبي الماجد الجائد القدم

لقد اشتق اسم الفاعل "جائد" من جاد وجود قياساً، وإن لم يسمع عنه العرب حيث استعاضوا عنه بالصفة المشبهة باسم الفاعل "جواداً" لخفتها ورشاقتها^(٢٢)

ويقول أيضاً :

فمضت وقد صبغ الحياء بياضها لوني كما صبغ اللجين العسجد
ومع أن صبغ لا تتعدى إلى مفعولين ، إلا أن شاعرنا عداه بعد أن ضمنه معنى
(أحال) و(صير).

ورغم امتلاك المتنبي لرصيد لغوي غزير، إلا أنه كان يلجأ أحياناً إلى
تجاوز العرف الشائع في استعمال المفردات من حيث قواعد تأنيثها وتذكيرها
وأفرادها وتثنيتهما على خلاف ما كان الناس يلفونها عليه^(٢٢). فهل السبب في
ذلك قضية المعنى التي كانت همه الأول والأوحد والتي كانت مقدمة عنده على
سواها ؟؟؟.

يقول المتنبي :

مثلت عينيكَ في حشائِ جراحة فتشابهها كلتاهما نجلاء
وكان مقتضى اللفظ أن يقول (فتشابهتا) ولكنه تجاوز ذلك وحمل اللفظ على
المعنى فذهب بالعين إلى العضو وبالجراحة إلى الجرح ، وهما مذكران^(٢٣).

ويقول في مناسبة أخرى :

حشائِ على جمر نكيٍّ من الهوى وعيني في روضٍ من الحسن ترتع
وكان عليه أن يقول (ترتعان) ، واعتذروا له بأن الحكم العينين حكم حاسة
واحدة فلا تكاد تنفرد إحداها برؤية دون الأخرى فاكتفى بضمير واحد^(٢٤).

ويقول :

وتكرّمت ركباؤها عن مبركٍ تقعان فيه ليس مسكاً أذفرا

وهنا يخبر عن الجمع بالمتنبي ، وهو ضعيف وغير سديد في صناعة الإعراب كما يقول الثعالبي .

وقد يعمد المتنبي في إعطاء الكلمة معنى غير معناها الذي ألفه الناس أو استعمالاً لم يسبقه إليه أحد . فهو يضع (لم) موضع (ليس) في قوله :

إذا داءُ هنا بقراط عنه فلم يوجب لصاحبه ضريب

محتجاً في ذلك بشواهد من شعر الأعشى حيث استخدم (لم) مكان (ما) وغيره وضع (لن) مكان (ما). ويقول الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب (٢٦) أنه تتبع الدراسات الكثيرة لقدامى النقاد ولم يجد بها ما يصح إضافته إلا مثلاً واحداً وقع عليه بعد جهد مضني ويحث وفير .

يقول المتنبي :

فأجرك الإله على عليلٍ بعثت إلى المسيح به طيباً

وموضوع المؤاخذة قول المتنبي : بعثت المسيح به ، حيث نزل الفعل المتعدي منزلة الفعل اللازم فعده بالحرف .

تري .. هل كان المتنبي يرافق قراء شعره ومستمعيه ويعيش معاناتهم عند مواجهة هذا العويص المعقد من أبياته ؟؟. ربما .. بل أن ذلك حدث باليقين وشعور الاغترار والخيلاء يجعله ينظر إليهم وداخله يقول :

أنامُ مَلءَ جفوني عن شواردها ويسهر الخلقُ جرّاءها ويختصمُ
لكن تلك "الشوارد" في الحقيقة ليست ألفاظاً مفردة وإلا لتكلفت كتب اللغة
بالإفصاح عنها وكشف غامضها ، لكنها معانيه التي كان الناس يكدحون ويكدون
أذهانهم في الاهتداء إليها ، بل وكانوا يستعينون بالشاعر نفسه ليكشف لهم عن
مقاصده من هذه الشوارد التي هي ليست شوارد في الواقع بقدر ما هي ألغاز مغمورة
في الغموض .

ولنتأمل هذه "الشاردة" لنلمس كيف أتعبت المتخصصين من أبناء عصره
يقول المتنبي :

أُمِطَ عَنْكَ تشبيهي بما وكأنه فما أحدٌ فوقى ولا أحدٌ مثلى

ما علاقة (ما) بالتشبيه ؟؟ وهل هي من أدواته ؟؟

أجاب ابن فورجة : هذه (ما) التي تصحب (كأنما) إذا قلت : كأنما زيد
الأسد .

وأجاب الخوارزمي :

(ما) هنا اسم بمعنى (الذي) ، ومعناه أن يقال لمن يشبه البحر: كأنه ما هو
نصف الدنيا ، يعنون البحر^(٢٧) .

وأجاب ابن جني (٢٨) :

إن (ما) سبب التشبيه لأن القائل إذا قال الآخر: بم تشبه هذا؟ قال له المجيب كأنه الأسد أو كأنه الأرقم . فجاء المتنبي بحرف التشبيه وهو (كأن) وبلغف (ما) الذي كان سؤالاً فأجيب عنها بـ "كأن" .

أما صاحب التبيان فيجيب بأن: الصحيح من معنى هذا البيت أن (ما) نكرة بمعنى شيء موضوعه العموم، كأنه قال : أمت عنك تشبيهي بشيء من الأشياء هذا نموذج واحد من نماذج مشكل المتنبي ..

اختلف فيه هؤلاء الشراح وكلهم من العلماء بالشعر واللغة

وتحيروا في فهم غرض الشاعر

فما البال بجمهور القراء ممن لا يملكون قدرة هؤلاء العلماء ومعرفتهم ؟؟؟ وهل الشعر هو ما يسهر الخلق في تفهمه ، ويختصم الأئمة في إدراك مراميه ؟؟؟ يقول المتنبي يصف ليلة طويلة :

أحادي سداس في أحادي ليلا تنال المنوطة بالتناد

قال الواحدي :

لقد أكثرنا في معنى هذا البيت ولم يأتوا ببيان مفيد ، ولو حكيت ما قالوا لطال الكلام . ولكني أذكر ما وافق اللفظ من المعنى أنه أراد : أواحدة أم ست في واحدة .

وقال صاحب بن عباد :

إنها من عيوب قصائده التي تحير الأفهام وتفتوت الأوهام لأنه جمع في الحساب ما لا يدرك بالارتباطيقى . ويضيف: أنه كلام الحكل ورطانة الرط ، وما ظنك بممدوح قد تشمر للسمع من مادحيه فصك سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة والمعاني المنبوذة .

ويتفق ابن خلدون في مقدمته مع صاحب فيقول :

ولا تكفى في الشعر ملكة الكلام العربي ، بل تحتاج إلى تطف ومحاولة في رعاية الأساليب واستعمالها ، وانتقاء التراكيب الصحيحة فيرصها كما يفعل البناء ونكتفى بهذا القدر مما عدوه من عيوب شعر أبي الطيب ، وحسب من يريد المزيد الرجوع إلى كتاب (الفتح الوهبي) لابن جنى ، و (الواضح) للأصفهاني و(الفتح على أبي الفتح) لابن فورجة وغيرها من المصنفات .

لكن ما نود أن نقرره أنه من الحيف أن ننكر طاقة معاني الشاعر وغزارتها في أكثر شعره . ولعله بالغ في تلك المعاني والأوصاف فوق فيما وقع فيه المتكلفون وقد يكون لشنيع مبالغاته أنها الوسيلة الناجحة في عصره لاستنزاف المنح والعطايا ، وإغراء الملوك والأمراء وأشباهمهم من الأغنياء بالبذل والهبات .

وقد جعل صاحب بن عباد والعكبري والقيرواني من هذه المآخذ سمة لازمة من سمات الشاعر يتعذر عليه الإقلاع عنها . مع ميلهم إلى إثبات أن المتنبي كان يعتمد إلى ذلك قصداً ليدلل على علمه باللغة وبراعته في سبك الألفاظ سبكاً مخالفاً ألفه الناس واعتادوه من الشعراء ومن ثم أوقع نفسه في الغموض والالتواء

والواقع أن تلك الأبيات التي ساقوها لا تعدو أن يكون بعضها معيباً في ذاته أما أن تكون دليلاً على قصور وفساد خاطر فإنها لا تنهض أو تدل على ذلك ولا شك أن المتنبي كان يتعسف أحياناً في أساليبه تعسفاً لا يصم الأذان لكن مما لا شك فيه أيضاً أن مئة بيت أو أكثر لا تسقط بحال ديواناً كاملاً " ولقد رأيتك - وفقك الله - لما احتفلت وتعلمت وجمعت أعوانك واحتشدت وتصفححت هذا الديوان حرفاً حرفاً واستعرضته بيتاً بيتاً ، وقلبت ظهره وبطنه ، ولم تزد على أحرف تليقها وألفاظ تمحلها ادعيت في بعضها الخط واللحن ، وفي أخرى الاختلال والإحالة ، ووصفت بعضها بالتعسف والغثاثة وبعضاً بالضعف والركاكة ، وبعضاً بالتعدي في الاستعارة . ثم تعديت بهذه السمة إلى جملة شعره فأسقطت القصيدة من أجل بيت ونفيت الديوان لأجل قصيدة . وعجلت الحكم قبل استيفاء الحجة وأبرمت القضاء قبل امتحان الشهادة (٢٩) .

ويبدو أن الجرجاني بهذه العبارة كان يعنى صاحب بن عباد الذى تحامل على أبى الطيب وجمع له من ديوانه قرابة ثلاثين بيتاً رأى فى كل منها عيباً من العيوب التى تقعد بها عن الوصول إلى المستوى الجمالى المنشود .

والصاحب بهذا الحكم متجن على الشاعر . فهذا القدر لا يكاد يذكر بالنسبة لهذا الديوان الضخم الذى يبلغ ما حواه من الأشعار خمسة آلاف وأربعمئة وأربعة من الأبيات (٣٠) .

والواقع أن استخفاف المتنبي بقواعد اللغة قضية لا يقرها تاريخ المتنبي نفسه . فالذى يجلس بين يديه ابن جنى ويتصدى لابن خالويه ، وينقل عنه أبو على

الفارسي ، ويقرأ عليه عضد الدولة كتاباً في اللغة لا يستطيع أن يستخف باللغة وهو من كبار رجالها كما يقرر ذلك خصومه .

أما ما قيل من أنه كان يستخف بقواعد اللغة ويغرم بغير المشهور منها ويتلاعب بالألفاظ أحياناً لإشعار منافسيه بعلو كعبه في الصناعة ، أو أنه كان يستجمل القوم فيصوغ لهم من الألفاظ ما لا يهتم بتنقيحها ، مكتفياً بأن يستر عيوبه ببيت من الحكمة والأمثال يذكره عقب كل فقرة من قصائده (٣١) .

وما قيل من أن: ذلك أثر من آثار حرص المتنبي ، فهو يبدأ البيت حسناً سهل المطلع واضح الفكرة ثم يصعب إتمامه فيعز عليه أن يضيع البيت وفيه هذه الحسنات فيتمه بأي شكل (٣٢) .

وأيضاً

لأن كثيرين من الناس يحبون أن يضعوا صعوبات وهمية أمام أنفسهم يخادعون بها أنفسهم ليقتنعوا بأنهم يستطيعون ما يريدون متى أرادوا (٣٣)

أن شاعرنا تنتابه من أن لآخر نوبة أشبه بالحمى يهذى فيها بالغريب ويخرج كل ما بقى عالقاً في صورة أرجوزة يخفف بها ما كان مرتكزاً على صدره من هذا الحمل الثقيل

نقول أن ذلك كله مردود عليه بالسؤال بسيط : من هم الناس الذي كان يستجملهم المتنبي ؟؟ أليسوا هم الناس أنفسهم الذين كان يسوق لهم الحكمة التي تحتاج إلى ذهن مرهف ونفس واعية بصيرة بتاريخ القوم ، خبيرة بمجريات الأمور من حولهم وبكل ما يصادف هوى في نفوسهم لتفهمها وتتبصر ما فيها ؟؟؟

ثم

أى حمى تلك التى كانت تنتاب الشاعر من حين لآخر يهذى فيها بالغريب؟؟ لقد أبدع أبو الطيب أجمل قصائده (الحمى) عندما انتابته تلك الحمى المزعومة .

والحق ما قرره الأستاذ على النجدى ناصف من أن التعقيد والإغراب لم يكونا عند المتنبي طبيعة راسخة ولا صفة ملازمة ، ولكنه كان عارضاً طارئاً تقتضيه أسباب موقوتة فيبقى ما بقيت ويمضى على أثرها حين يزول^(٣٥) .

وما أكثر دواعى اختلال المزاج والإعياء فى حياة هذا الشاعر الكبير ، الذى يدلنا التاريخ أنه - أى التاريخ - يأبى الإباء كله أن يخلد فناً كل مقوماته الشذوذ والتعقيد والغرابة والاضطراب اللهم أن يكون تاريخاً للنقائض وهذا ما لم تسمع عنه البشرية أبداً^(٣٦) .

علاوة على ذلك ، أى عالم ذاك الذى لايهفو وأى جواد ذاك الذى لا يكبو؟؟ إنها الطبيعة البشرية القاصرة على الدوام ، والتى تستشعر هذا القصور فنراها تحاول الإجادة والتجويد بحثاً عن كمال منشود تطمح دائماً إلى تحقيقه .

وحسبنا دليلاً على منزلة الرجل أن شاعراً كبيراً كابن دينار الذى رويت عنه كتب الزجاج وثعلب وابن الأعرابي وغيرهم يمدحه بقصيدة مطلعها :

ربّ القريض ذلك الحلُّ والرحلُ	ضاقت إلى العلم إلا نحوك السبلُ
تضاءل الشعراء اليوم عند فتى	صعاب كل قريض عنده ذل

الهوامش

١. دلائل الإعجاز .
٢. مقدمة كتاب الشعر والشعراء .
٣. العمدة / ج١ .
٤. مقدمة ابن خلدون / مختارات من تراثنا / وزارة الثقافة والإرشاد / مصر / ١٩٦٠ .
٥. البيان والتبيين للجاحظ .
٦. عباس حسن / المتنبي وشوقي / دار المعارف / مصر ١٩٦٤ .
٧. تاريخ النقد الأدبي إلى القرن الرابع الهجري / دار المعارف / مصر .
٨. أسرار البلاغة .
٩. هو التحسين بن بشر المتوفى سنة ٣٧٠هـ؛ وهو صاحب كتاب الموازنة . كان حسن الفهم جيد الدراية والرواية مريع الإدراك ، له شعر حسن واتساع تام في الأدب / معجم الأدباء / ياقوت .
١٠. البيان والتبيين .
١١. سر الفصاحة .
١٢. عيار الشعر .
١٣. الصناعتين / باختصار .

١٤. الشعر والشعراء .
١٥. مقدمة شرح ديوان الحماسة .
١٦. يوسف البديعي /الصباح المنبى عن حيثية المتنبي /دار المعارف / مصر ١٩٦٢ .
١٧. عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بع ألف عام طبعة الجزيرة بغداد ١٩٣٦ .
١٨. د. صاحب أبو جناح / مجلة المورد / العراق / المجلد السادس / العدد الثالث ١٩٧٧ .
١٩. الابتداعية: ترجمة معنوية لكلمة *Romantique* . وفى خروج أبى الطيب وابن هانى الأندلسى وأبى العلاء المعرى وأضرابهم على أساليب العرب المخصوصة وإطلاقهم الشعر من قيود الصناعة ما يشبه تلك الطريقة / أحمد حسن الزيات / تاريخ الأدب العربى دار نهضة مصر .
٢٠. النقد المنهجى عند العرب .
٢١. ممن ألف كتباً فى المتنبي: ابن جنى وأبو القاسم الأصفهانى ، وابن فورجة وابن بسام وأبو العلاء المعرى وأبو حيان التوحيدي وعلى بن عيسى الريحى والعروضى وغيرهم .
٢٢. د. صاحب أبو جناح / مجلة المورد / مرجع سابق .
٢٣. السابق .

٢٤. نفسه .
٢٥. الديوان بشرح الواحدى وشرح البيان .
٢٦. المتنبي بين ناقديه / دار المعارف / مصر ١٩٦٤ .
٢٧. الفتح على أبى الفتح .
٢٨. الفتح الوهبي .
٢٩. الجرجاني / الوساطة بين المتنبي وخصومه .
٣٠. زيادات ديوان المتنبي / (قال الإمام أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بالواحدى رحمة الله عليه : هذا آخر ما اشتمل عليه ديوان أبى الطيب المتنبي الذى رتب به بنفسه وهو خمسة آلاف وأربعمائة وأربع وتسعون قافية / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام مرجع سابق .
٣١. محمد عبد الجواد / صحيفة دار العلوم .
٣٢. د. محمد كامل حسن / الكاتب المصرى / نوفمبر ١٩٤٥ .
٣٣. السابق .
٣٤. عباس محمود العقاد وآخرون / أبو الطيب المتنبي حياته وشعره / مجموعة مقالات / المكتبة الحديثة بيروت ط ١ / ١٩٨٢ .
٣٥. الكاتب المصرى / عدد يناير ١٩٦٤ .
٣٦. د. محمد عبد الرحمن شعيب / المتنبي بين ناقديه دار المعارف ، مصر ١٩٦٤ .

الفصل الخامس :

المثني والفلسفة اليونانية

تعرف دائرة المعارف البريطانية الحكمة بأنها :

تؤلف نوعاً من الرسائل الأخلاقية التي تظهر طبيعة الخير وتتكفل بأخبار
الطائفة التي كتبت من أجلها عن الوسيلة التي يتسنى بها تحقيق الخير^(١)
وقد عرفت البشرية الحكمة في معظم أطوارها

ففي الشعر الجاهلي استمد الحكيم العربي حكمته من تجارب الحياة اليومية
ومن التفكير الشخصي الفطري .
وكان العرب في الجاهلية إذا تنازع الرجال منهم في الشرف تنافروا إلى
حكمائهم^(٢) .

وقد أورد الجاحظ أسماء جماعة من حكماء الجاهلية ممكن كان يذكر لهم
بالقدر والرياسة والبيان والحكمة والخطابة ، والدهاء والفطنة ، من مثل : لقمان بن
عاد ، لقيم بن لقمان ، مجاشع بن دارم ، سليط بن كعب ، لؤى بن غالب ، قصي بن
كلاب ، وغيرهم^(٣) .

وديوان الشعر الجاهلي حافل بالحكم .. كقول طرفه بن العبد^(٤) :

قد يبعثُ الأمر العظيم صغيره حتى تظل له الدماء تصيب
وقوله :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود يخذف

وقول عبيد بن الأبرص :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرينٍ بالمقارن يقتدى

وقول زهير بن أبي سلمى :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يُستغن عنه ويدمم

وهي كما نرى فلسفة بدائية تتفق وببساطة العصر وطبيعة الحياة القبلية التي تحتاج إلى آراء ونظريات ترسم لها الحدود والشرائع التي ينبغي أن يتحرك سلوك الفرد من خلالها ، وتحدد بالتالي علاقته بالآخرين .

وجاء الإسلام ...

ونزل القرآن الكريم هدى ورحمة للعالمين ، فكان جامعاً لكل المبادئ والقيم السامية ، ومخططاً للنهج السليم الذي ينبغي أن يسير عليه من يبغى السعادة في الحياة الدنيا والآخرة .

والقرآن الكريم يشيد بالحكمة

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

لِنَفْسِهِ ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾) لقمان / ١٢ .

وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يدعو إلى تعلم الحكمة لأنها ثمرة التجربة الإنسانية المتجددة المتغيرة^(٥) :

.... الحكمة ضالة المؤمن .

.... ما أخلص عبد الله أربعين يوماً إلا وظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه
:.... لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم
.... خذوا الحكمة ولو من ألسنة المشركين .

وقد نما مدلول الحكمة بعد الإسلام وتطور وأخذ شكلاً جديداً بتطور المجتمع
العربي الذي هزته الدعوة الإسلامية هزة شديدة ، واقتلعت العادات الضارة
والأخلاق الفاسدة من الجذور .

وفى الحديث الشريف فى الصحيحين :

.... لا حسد إلا فى اثنين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىهلكته فى الحق
ورجل آتاه حكمة فهو يقضى بها ويعلمها .

ويتضح المفهوم الإسلامى للحكمة فى هذا الحديث .. حيث قرّبط الحكمة
بالعلم . لكن دائرة العلم فى العصر الأموى تتسع نظراً لاتجاه الأمويين للترجمة
اليونانية - فى نطاق ضيق - فتتسع تبعاً لذلك دائرة الحكمة لتشمل من يدرسون
الفلسفة ويعالجون أمور الكيمياء^(١) .

ويمهد هذا العصر للتغيير الذى طرأ على مدلول الحكمة بعد ذلك . فقد جاء
العصر العباسى وازدهرت فيه حركة النقل والترجمة عن الثقافات الهندية
والفارسية واليونانية . ونشط العرب نشاطاً ظاهراً فى احتكاكهم بغيرهم من الأمم
ذات الحضارات الراسخة والاستفادة منها وإكمال النقص فيها .

ففى خلافة جعفر المنصور ازدهرت حركة الترجمة فنقل عبد الله بن المقفع
بعض الكتب فى السلوك من الفارسية إلى العربية ، فترجم " كليله ودمنة " من

الفارسية إلى العربية باعياً من وراء ذلك وضع نموذج لكلام حكماء الشرق أما متأدبي العرب^(٣).

ومن الكتب التي ترجمت "الجمهورية" لأفلاطون، "الطبيعيات والخلقيات" الشعر والخطابة لأرسطو.

وفي عصر المأمون ازدهرت حركة الترجمة. وعندما انتصر على الروم (٢١٥هـ) اشترط في معاهدة الصلح أن يعطيه الروم الكتب الفلسفية المخزونة في أقبيتهم بدلاً من المال. وعلى ذلك فقد تدفقت الكتب الفلسفية اليونانية على المترجمين فشمروا عن سواعدهم ليشهد القرن الثالث الهجري أنشط عملية لنقل التراث الأجنبي إلى اللغة العربية: فترجم إسحق بن حنين (٢٩٨هـ) عن اليونانية كتباً في الطب، وأخرى في الفلسفة.

وكان لكتاب "كليلة ودمنة" أثر خطير في تغيير مجرى الحكمة. فهنا الطير والسباع والبهاائم تنطق وتتكلم، ويدخل الخيال والفن في صياغة الطريقة التي تلقن بها أصول الحكمة لأن:

"بلاد الشرق هي مهد القصص والأمثال المضروبة على ألسن الحيوان والطيور والهند خاصة هي مهد القصص الحكيمية التي شاعت في أرجاء الأرض، وانتقلت إلى بلاد الصين والتبت وبلغت أوروبا في العصور القديمة"^(٤).

وأخذ أبو نصر الفارابي (٢٥٩هـ) على عاتقه مهمة تعريب منطق أرسطو ووضعه في ألفاظ تلائم الثقافة العربية والجديد الذي أدخله على مدلول "الحكمة هو الربط بينهما وبين الفلسفة حتى اختلط المفهومان عنده اختلاطاً واضحاً"^(٥)

وقد شاع هذا المدلول الذى عمقه وأصله الفارابى إلى حد أن العرب كانوا يترجمون كلمة (فلسفة) اليونانية فى نصوصهم الأولى إلى اللغة العربية بكلمة (حكمة).

وفى هذا القرن - الرابع الهجرى - تثلت العقلية العربية كافة الثقافات العالمية . وعكست الحكمة هذا التمثيل فكانت مثل: "الإسفنجة" التى تشربت الأفكار الجديدة وصاغتها صياغة نظرية فلسفية لتصبح نبعاً فياضاً يرتاده طلاب العلم والأدب .

أما " المثل " فقد اختلط مفهومه بالحكمة فى كثير من المؤلفات الشرقية قديمها وحديثها . وقد جعل أرسطو الإيجاز شرطاً ضرورياً للمثل وأخذ عنه مفكروا الشرق هذا التعريف وبنوه فى مؤلفاتهم . فهذا أبو عبيد بن سلام يرى ضرورة اجتماع ثلاثة خلال فى المثل :

١- إيجاز اللفظ ٢- إصابة المعنى. ٣- حسن التشبيه (١٠)

هذا.. ويمكن القول بأن الصلة وثيقة بين أدب الحكمة وأدب الأمثال . فكلاهما تجربة نابغة من الواقع اليومى للناس ، وكلاهما يعتمد على صياغة لغوية معبرة وموجزة ومتقنة ، وإن كان المثل يتحلل منه أحياناً حين ينبع من أفواه العامة وحياتهم.

وإذا كان عهد ما سبق إيجازه عن انتشار الفلسفات أسبق من مولد المتنبي بما يقرب من نصف قرن ، فقد كان هذا العهد بمثابة البوتقة التى انصهرت فيها

كل هذه الفلسفات ، حتى تناولها الفارابي معاصر المتنبي ورفيقه في بلاط سيف الدولة الحمداني.. وأتم بنيانها .

يقول ابن خلدون ^(١١) :

ومنذ أيام الفارابي أحصيت كتاب أرسطو أو الكتب المنسوبة إليه لم تتغير في جملتها وصارت تفسر وتشرح على طريقة الفارابي وأولها الكتب الثمانية في المنطق ، وهي : كتاب المقولات ، كتاب العبارة ، كتاب القياس ، كتاب البرهان ، كتاب المواضع الجدلية ، كتاب الأقوال المغلوطه ، كتاب الخطابة ، أما "الكليات" فهو مقدمة لهذه الكتب .

والواقع أن قائمة مؤلفات الفارابي تدل على شمول ثقافته واتساع معارفه كما تدل على صلته الوثيقة بالفلسفة الإغريقية وبأفلاطون على وجه الخصوص وبأرسطو على وجه أخص ، فمن مؤلفاته : كتاب في أغراض أرسطو طاليس ، كتاب في شرح البرهان لأرسطو طاليس ، كتاب شرح الخطابة له ، وكتاب المغالطة له ، وكتاب شرح القياس له ، وشرح كتاب الأخلاق له ، وكتب أخرى كثيرة

ومن الثابت تاريخياً أن المتنبي التقى بالفارابي في بلاط سيف الدولة الحمداني إذ أن الفيلسوف عاش في كنف سيف الدولة في حلب الشهباء منذ عام ٢٢٢هـ حيث رحب به الأمير وأفسح له صدره وأغدق عليه ماله وعطفه ، وغمره بإعجابه وتبجيله . وظل الفارابي منعماً مبعجلاً في بلاطه لمدة ست سنوات حتى توفي عام ٢٢٩هـ .

وقد لجأ المتنبي إلى كنف سيف الدولة عام ٣٣٧هـ - أى قبل وفاة الفارابي بسنتين - ولا يستبعد أنه كان يحضر مجالس الفارابي الفلسفية وشروحه على كتب أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان . ولا يستبعد أيضاً أن ثمة صداقة متينة كانت تربط الفيلسوف بالشاعر ، فقد ملك كلاهما ناصية الفكر الفلسفى والحكمى فى إمارة سيف الدولة ، وكانا موضع الإعظام والتبجيل فى بلاط الأمير^(١٢) .

ويقول القاضى الجرجانى عن المتنبي^(١٣):

راح يقرأ الفلسفة والمنطق ، ولا شك فى استفادته من فلسفة الفارابي بحلب الشهباء ، كما تأثر بمقولات أرسطو ، وعكف على كتب التصوف حتى فهم المعانى منه والمرامى .

ويقول الدكتور شوقى ضيف^(١٤):

ولعله - يقصد المتنبي - كان يحضر محاضرات الفارابي التى كان يلقيها وأكبر الظن أنه قرأ مؤلفاته ومؤلفات غيره من المتفلسفة ، وأثر ذلك واضح فى شعره أشار إليه معاصروه ومن جاء بعدهم مراراً وقد ألف الحاتمى - معاصره - رسالة مشهورة فى المقارنة بين بعض أبياته الحكيمة وحكم أرسطو ، وكشف عن الصلة بينهما وبين تلك الحكم حتى لتصبح أحياناً كأنها نظم لها ، وإن أعطاها أبو الطيب من نفسه وخياله وصيغته الشعرية ما جعلها تبدو وكأنها خالصة ومن بنات أفكاره

ويقول الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب^(١٥):

ولا نستبعد أن يكون المتنبي قد قرأ بعض مؤلفات أرسطو التى ترجمها الفارابي ، وتأثر بما قرأ لأنه كان شغوفاً بالقراءة كثير الاطلاع قوى الحافظة واسع

الإدراك ذلك فضلاً عن أن انتشار الأفكار ونسرب الآراء لا يحتاج إلى مدرس يلقيها أو مدرسة تعلمها لأن طبيعة العلم تأبى إلا التسرب .

ويقول الأستاذ جميل جابوري^(١٦) :

على أن الذي لاشك فيه أن المتنبي تثقف بالفكر اليوناني ونهل من معانيه بعض المعاني فانبثت في تضاعيف شعره وجاءت شاهدة على ثقافته العميقة الجذور.

وقد أورد أبو البقاء العكبري في شرحه على ديوان المتنبي الكثير من المقابلات بين حكم أبي الطيب وأقوال " الحكيم " الذي لم يذكر اسمه ولم ينص عليه صراحة وربما كان العرب في ذلك الوقت تعنى أرسطو حين تتكلم عن " الحكيم " .

ورغم الاتفاق على تأثر المتنبي بالفلسفة اليونانية سواء عن طريق القراءة أو حضور محاضرات الفارابي ، إلا أن صاحب " الحكمة في شعر المتنبي "^(١٧) يرى غير ذلك ، فيقول :

فالمتنبي لم يذهب إلى كتب أرسطو ليقراها ثم ينقل حكمه منها ، فهذه قضية يصعب البرهان عليها إذا لم يقل المتنبي هذا ولم ينقل المؤرخون المعاصرون لنا صورة من ثقافته اليونانية .

ويتفق الأستاذ أحمد أمين مع هذا الرأي فيقول^(١٨) :

والمتنبي لم يتثقف ثقافة يونانية ، وإنما تثقف ثقافة عربية خالصة .

ونحن هنا أمام رأى غريب على نحو ما . فلم يقل أحد بأن ثقافة أبى الطيب المتنبي الأساسية هي الثقافة اليونانية . وكل ما قيل أنه (قرأ) ، أو (سمع) ، أو (تأثر) بتلك الثقافة في مدينة تضطرم بالحركات الفكرية والأدبية ، وفي بلاط أمير جليل ازدحم بالمتقنين من كافة الاتجاهات .

وقبل أن نستطرد ...

وكى تكون أمامنا صورة واضحة عن هذا التأثر ، لنستعرض ما قاله أرسطو وما صاغه المتنبي – ومن خلال نفس الأفكار – شعراً :

قال أرسطو: الفرق بين الحلم والعجز أن الحلم لا يكون إلا عن قدرة ، والعجز لا يكون إلا عن ضعف ، فليس للعاجز يتسمى بالحليم .

وقال المتنبي :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجىء إليها اللئام

وقال أرسطو: على قدر بصيرة العقل يرى الإنسان الأشياء ، فالسالم العقل يرى الأشياء على قدر حقائقها ، والنفس الكئيمة ترى الأشياء بطبيعتها .

وقال المتنبي :

ومن يكُ ذا فم مريض يجد مُراً به الماء الزلالا

وقال أرسطو:

على قدر المهم تكون الهموم .

وقال المتنبي:

أفاضل الناس أغراضٌ لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من القطن

وقال أرسطو : النفس الذليلة لا تجد ألم الهوان ، والنفس العزيزة يؤثر فيها يسير الكلام .

وقال المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وقال أرسطو: الكلام والملا يتعاقبان الأجسام لضعف آلة الجسم لا لضعف آلة الحس .

وقال المتنبي :

وإذا الشيخ قال أفب فما مـ ل حياة ولكن الضعف ملا

وبهذا القدر نكتفى . ونحيل من يرغب في المزيد إلى كتاب " الرسالة الحاقمية التي جمع فيها الحاقمي ما يقرب من مائة بين منقولة من حكم أرسطو وما يهمننا الآن هو أنا إذا اتفقنا مع ما ذهب إليه الدكتور يسرى محمد سلامة والأستاذ أحمد أمين مع عدم تأثر المتنبي بالفلسفة اليونانية ، فإن السؤال الذي يطرح نفسه وبإلحاح هو:

هل نحن أمام مصادفة تتوارد فيها الخواطر والأفكار إلى هذا الحد الذي يكاد يكون تطابقاً؟؟؟ .

يجيب الأستاذ أحمد أمين^(١٩) :

إن الحكم ليست وقفاً على الفلسفة ولا على من تبحروا فى العلوم والمعارف وإنما هى مشاع بين الناس يستطيعهما العامة كما يستطيعهما الخاصة .

ويلتقط الدكتور يسرى محمد سلامة الخيط ويكمل^(٢٠) :

فالمعانى قد تتوارد بين كاتبين لم يقرأ أحدهما للآخر ، بل ولم يسمع أحدهما عن زميله فليست دراسة المعانى طريقاً مأموناً، لأن الأفكار مطروحة فى الطريق كما يقول الجاحظ ، ولكن طريق التعبير عنها هى طريقنا الهادى الذى نسير عليه
وبصورة أخرى يعيد الدكتور محمد مندور طرح السؤال^(٢١) :

هل من الصحيح أن المتنبي لم تكن له ثقافة فلسفية ، وهل من الممكن أن يصل كل هذه الآراء فى الحياة والناس بنفسه دون ثقافة سابقة فى هذا الاتجاه ؟؟؟
ثم - وهذه أهم مسألة - هب انتزع هذه الآراء من الحياة ، فهل كان يستطيع أن يصوغها تلك الصياغة الفلسفية التى صاغها دون ثقافة ؟؟؟

ويجيب الدكتور يسرى محمد سلامة على السؤال بإجابة تختلف وتصل إلى حد الاعتراف الصريح^(٢٢) : الإجابة القريبة من الصواب التى نراها بعد استقراء شعر المتنبي ودراسة صلاته فى بلاط سيف الدولة ، أنه تتقف فى مصادر كثيرة أهمها الثقافة الفلسفية اليونانية التى ظهرت انطباعاتها جلية واضحة فى شعره بعامة وحكمه بخاصة ، ولا ينفى هذا انتفاعه ببقية المصادر .

ويقطع المتنبي كل قول عندما يعترف قرأ لأرسطو وغيره:

من مبلغ الأعراب أنى بعدها جالست رسطاليس والإسكندرا

ونحن لا نرى ضيراً مطلقاً في انتفاع المتنبي بأرسطو أو غيره من الفلاسفة لأن الفلسفة - وهي صورة من صور التفكير العقلي - لم يقصد بها أصحابها أن تكون بنجوة من حياة المفكرين إنما انتهوا منها وأسلموها لجيلهم وللأجيال من بعدهم لتكون مناهج فكرية وقواعد خلقية وأساساً سلوكية وغيرها .

وتتفق كلمة كثير من النقاد على أن أبا الطيب من أبرع الشعراء في الاهتداء إلى الحكمة وفي ضرب المثل في مختلف المناسبات الإنسانية وكأنه صاغ للناس كل ما يمكن أن يجرى في خواطرهم مما أتاح لشعره سيورة لم تتح لشاعر عربي من قبله ولا بعده . ولا يكاد يوجد أديب عربي - منذ عصره - إلا وهو يحفظ من حكمه ويستشهد بها في كتاباته وأحاديثه .

والواقع أن أبا الطيب المتنبي قد وفق هذا المجال أيما توفيق حتى اشتهر بين النقاد ومؤرخي الأدب باسم : "المتنبي الحكيم" ولعل مبعث هذا قوله حينما سئل عن نفسه وعن أبي تمام البحتري فقال :

أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري (٢٣) .

ويرى ابن الأثير أن المتنبي أنصف في هذا الحكم أيما إنصاف . وأعراب فيه عن متانة علمه بالميزة الفنية لكل منهم .

وسوف تقودنا دراسة التطور الذي لحق بشعر المتنبي أثناء اتصاله بالفارابي في بلاط سيف الدولة إلى التعريف على خصيصة من أهم خصائص شعره في تلك الحقبة ، وهي التفكير المنظم الدقيق ، وتوليد المعنى بذكاء ، وحدة التعبير ، والتدليل على قضاياها دون انفعال ، والعناية بأقيسة المنطق .

ولنتأمل هذا الشاعر وهو يعزى سيف الدولة في وفاة عبد له يدعى " يماك "

وإني وإن كان الدفينُ حبيبي	حبيبٌ إلى قلبي حبيبٌ حبيبي
وقد فارق الناسُ لأحبة قبلنا	وأعيا دواء الموت كل طبيبٍ
سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها	مُنِعْنَا بها من جيئة وذهوبٍ
تملكها الآتى تملكُك سالبٍ	وفارقها الماضى فراق سليب
ولا فضل فيها للشجاعة والندى	وصبر الفتى لولا لقاء شعوب
وأوفى حياة الغابرين لصاحبٍ	حياة امرئٍ خاتته بعد مشيب

وهنا نرى أن المتنبي لا يلقي حكماً تعتمد على الرنين اللفظي ، أو التلاعب بالفنون البلاغية ، لكنه يناقش قضية الموت حتى يقنعنا بأنه هدية الحياة الكبرى وأنه استمرار لها وضمان لبقائها فنجدته يتطرق من الخاص إلى العام ، يساند في ذلك القياس المنطقي الذي يجعل من " يماك " حبيباً للشاعر لأنه حبيب لسيف الدولة وسيف الدولة حبيب المتنبي ، إذن فـ " يماك " حبيب المتنبي .

والموت قدر مكتوب لا حيلة للإنسان فيه ، فكم من أحبة فارقوا أحبائهم قبلنا
 وكم حار النطاسيون في الموت ومنوا بالخيبة حين قاوموه .
 وفي النهاية . نقول أن من يظن لأبي الطيب فلسفة تشمل العالم وتحل
 مشاكل الكون إنما يخطئ كثيراً وربما قارب ذلك أو أقرب من تلك المنزلة أبو العلاء
 المعري لا المتنبي . فلان كان أبو العلاء فيلسوفاً يتشاعر ، فإن أبا الطيب شاعر
 يتفلسف . ذلك لأن شرط المذهب الفلسفي أن يطبع كل تفكير الفيلسوف ومعتقداته
 وجميع مظاهر سلوكه بطابع الوحدة الفكرية بحيث نستطيع أن ندرك الحقيقة
 التي يؤمن بها في جميع أقواله وآرائه وكل معتقداته مادامت دائرة في مجال
 فلسفي واحد ، وبحيث تعد جميعها مظاهر مختلفة لحقيقة فلسفية مختلفة . فإذا
 ما تضاربت أو تعارضت هذه الأمور ذات الوشيجة القوية بعضها مع بعض دل ذلك
 على خلل في التفكير أو فساد في المنهج . وذلك ما يطعن في صحة القضايا التي
 حققها ، وفي صحة تفكيره - بوصفه فيلسوفاً - يتخطى المظاهر والأشكال إلى
 الأسس والأصول .

ومن هذا المنطلق نقرر أن أبا الطيب المتنبي ليس فيلسوفاً له مذهب قائم على
 البحث والاستنباط ، وإنما صاحب حكم وقضايا ، تفيض بها نفس عبقرية فيكتب
 لها الخلود لأنها اكتست ثوباً شعرياً جميلاً صادف الهوى والإعجاب في وجدان
 الناس .

الهوامش

١. دائرة المعارف البريطانية / ج-٢٣.
٢. محمود شكرى الألوسى / بلوغ الإرب فى أحوال العرب : ج١ .
٣. الجاحظ - البيان التبيين .
٤. د. يسرى محمد سلامة - الحكمة فى شعر المتنبي - دار المعارف بمصر ١٩٨٢ .
٥. ابن عبد ربه - العقد الفريد .
٦. الحكمة فى شعر المتنبي / مرجع سابق .
٧. السابق .
٨. د. عبد الوهاب عزام - مقدمة كليلة ودمنة .
٩. الحكمة فى شعر المتنبي - مرجع سابق .
١٠. نفسه .
١١. ابن خلدون / مقدمة ابن خلدون / مختارات من تراثنا وزارة الثقافة والإرشاد بمصر ١٩٦٠ .
١٢. الحكمة فى شعر المتنبي / مرجع سابق .
١٣. الجرجانى / الوساطة بين المتنبي وخصومه / ط صيداء ١٩١٣ .
١٤. فصول فى الشعر ونقده / دار المعارف بمصر ١٩٧١ .

١٥. المتنبي بين ناقديه / دار المعارف بمصر ١٩٦٤.
١٦. مجلة المورد/العراق/ عدد خاص عن المتنبي / العدد الثالث المجلد السادس ١٩٧٧.
١٧. د.يسرى محمد سلامة / مرجع سابق.
١٨. أبو الطيب المتنبي / حياته وشعره/ مقالات لمجموعة من الكتاب / المكتبة الحديثة/بيروت ١٩٨٢.
١٩. السابق.
٢٠. الحكمة في شعر المتنبي / مرجع سابق.
٢١. النقد المنهجي عند العرب / دار المعارف بمصر.
٢٢. الحكمة في شعر المتنبي.
٢٣. يوسف البديعي / الصبح المنبي عن حيثية المتنبي / دار المعارف بمصر ١٩٦٣.

الفصل السادس :

أثر مصر في شعر المتنبي

عاشت مصر تاريخها كله على العلم وأهله ...

عالم مصر الأول ، أمحوتب ، هذا المهندس الرائع الذى وضع تصميم مدينة
سقارة بناها . ومن أيامه – ومن قبله أيضاً – لم تتوقف شعلة العلم فى مصر أبداً
ولم يخل عصر من عصورها من علماء كبار .

وبعد علماء مصر القديمة الذين اخترعوا الهندسة والطب والكيمياء والقانون
والأخلاق ، جاء علماء الإسكندرية ، إسكندرية البطالمة .

كانت جامعة كبرى ملأت الدنيا نوراً . لم يزدهر العلم فى مدينة قبل العصور
الحديثة كما ازدهر فى الإسكندرية : فلاسفة ورياضيون وجغرافيون ومؤرخون
علماء ملأوا طباق الدنيا علماً : واحد استخرج وزن الأرض وآخر قاس بعد الشمس
وعلماء مصر الإسلامية لا يحصيهم عد . ففى يوم من الأيام جمعت الفسطاط
علم الدنيا كله وفى كل نواحي عالم الإسلام ركبت العقول فى أواخر القرون
الوسطى إلا فى مصر . وكيف يمكن أن يكون عصر ركود ذلك العصر الذى عاش فيه
أمثال : السخاوى والسيوطى وابن حجر العسقلانى والمقرئى وأبى المحاسن
والقلقشندى والنويرى وابن منظور والمرتضى والزبيدى عبد الرحمن الجبرتى^(١)

وعندما نزل أبو الطيب المتنبى مصر كان يحكمها كافور بن عبد الله
الإخشيدى ، الخادم الأسود الذى اشتراه سيده أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد
وأصل كافور يرجع إلى الحبشة كما ذكر بعض المؤرخين ، أو إلى النوبة كما ذكر

المتنبي في بعض شعره . وقد رياه الإخشيد وأعتقه ، ثم رقاها لما رأى فيه من الحزم والعقل وحسن التدبر حتى صار من كبار قاداته .

وتشروى عن كافور روايات كثيرة عن تواضعه للعلماء ^(٢) . ولم يكن اهتمامه بالحياة الأدبية والفكرية قاصراً على مجلسه بالفسطاط ، وإنما امتدت رعايته للعلم والأدب إلى جميع أركان البيئة المصرية . ولعل هذا ما أغرى العلماء للوفود إلى مصر من الكوفة والبصرة وبغداد . ومن علماء مصر في تلك الحقبة أحمد بن جعفر الديموري الذي ألف (المهذب في النحو) ، وأبو جعفر بن النحاس الذي ألف (معاني القرآن) و(شرح المعلقات) ، (طبقات الشعراء) وغيرهم .

وكان للمصريين مشاركة في تفسير القرآن الكريم إذ رحل إليها كثير من العلماء في طلبه ، كما فعل البخاري في تفسيره عندما نقل شطراً كبيراً من الصحيفة المصرية في التفسير تلك الصحيفة التي أشاد بها جلة العلماء من مثل ما قاله ابن حنبل عنها : " بمصر صحيفة في التفسير لو رحل رجل فيها إلى مصر ما كان كثير " ^(٣) .

ذلك هو واقع مصر الفكرى والثقافى وقت أن جاءها أبو الطيب المتنبي ومهما كانت حقيقة التكهّنات التى لجّ فيها القدماء والمحدثون عن الاتصالات التى تسببت فى اتجاهه إليها ، وكونها قد تمت من قبل الشاعر أو من قبل أولى الأمر فيها ، فالذى لا شك فيه أن مصر نجحت فى اجتذاب هذا الشاعر الكبير إليها وفى مصر وقع أبو الطيب فى تناقض حاد مع نفسه .

إن عليه أن يمدح كافوراً ويفرغ عليه أطيب الثناء .. ولقد فعلها من قبل سيف الدولة ، وعليه الآن أن يفعلها معه .. ، إنه اختياره الذى سعى إليه بقدميه ... لكن كيف يمدح هذا الأسود البغيض الذى لا ينجز وعداً ، والذى لا مفر من مدحه ؟؟؟.

وهل سيبقى له بعض احترام أو تقدير فى نفوس أولئك الذين يعرفون آراءه وأفكاره من المثقفين المصريين المتتبعين لشعره فى مصر : أولئك الذين ينتظرون بلهفة ماذا يقول فى أميرهم النوبى – أو الحبشى – ذلك الشاعر الذى قال :
وانما الناس بالملوك ولا تصلىح عرب ملوكها عجم
عليه إذاً أن يمدحه ولا يمدحه فى آن ...

إنه يستطيع أن يتغفله ويقدم له الهجاء فى صورة المديح ، فهو أمام عبد نوبى جاهل لن يستطيع أن يميز بين المديح والهجاء .
لكن أيضاً ...

ماذا عن العلماء والأدباء والشعراء – فضلاً عن الذين ترفع عن مدحهم من كبار رجال الدولة – الذين يحيطون بكافور ؟؟. ماذا عنهم لو أنهم فهموا وأوغروا صدر الأمير تجاهه ؟؟؟.

كيف يتعامل مع هذه المعادلة الصعبة التى وضعتها الظروف بين فكيتها ؟؟؟
وهدته فطنته إلى الحل ..

إن عليه أن يستخدم فى مديحه سلاحاً ماضياً من أسلحته اللفظية التى خبر
عبدانها أوسع خبرة . سلاح يُحْمَلُ دسم المديح كل ما يمكن من سموم الهجاء المقذع
والسخرية اللاذعة^(٤) .

وهكذا وُجِد شعر المديح الهجائى فى كافوريات المتنبي . وهو نمط من الشعر لم
يكن له به عهد فى شعره من قبل . إنه نبت مصرى خالص أنبثته الظروف التى
أحاطت بالشاعر وضيقته عليه الخناق .

ولنتأمل نماذج من هذا اللون الجديد فى شعره ، ولنقلبه على وجهيه :
المدح والهجاء :

إنما يفخر الكريم أبوالمسك بما يبتنى من العلياء

وبأيامه التى انسلخت عنه وما داره سوى الهيجاء

وبما أثرت صوارمه البيض فى جماجم الأعداء

ويمسك يكنى به ليس بالمسك ولكنه أريج الثناء

لا بما يبتنى الحواضر فى الريف وما يُسبى قلوب النساء

نحن أمام قرع بالعصا ، وتعليم مشوب بالاستخفاف والاستهزاء وإن تقنع فى
ظاهره بامتداح أيامه وصوارمه . إنه يستصغر فرح كافور . بهذه الدار ، ويعلمه
مؤنباً بما يجب أن يفخر به ويفرح ، وما يجب أن يترك الفخر به . ولا نستطيع أن
نغفل تشبيهه كافوراً بالمسك ، وهو أمر لم يقدم عليه شاعر من قبله عندما يذكر
مدوحه بلونه، لكن أبا الطيب طرقها غير هيّاب .

ويمدحه في الاتجاه نفسه ، فيقول :

وما طربى لما رأيتك لدعة ... لقد كنت أرجو أن أراك فأطربا إنه لم بعجب عند
رؤيته الأمير كافور ، لأنه كان يتوقع أنه سيملا الدنيا ضحكاً حين يراه . لقد جعل من
كافور قرداً يتزاحم الناس عليه ليروا الاعيبه فبطربوا ويضحكوا وعلى الدرب نفسه
يمدحه فيقول

فإن نلت ما أملت منك فريما شربت بماء يعجز الطير ورده

والبيت مدح إذا فسرناه بأنه يريد أن يقول لكافور: إن بلغت أملى فيك فليس
ذلك بعجب لأنى قد أبلغ الممتنع من الأمور التى لا تدرك . والبيت أيضاً هجاء وذم
إن فسرناه بأنه يريد أن يقول : إنى إن أخذت منك عطاءً على بخلك وشحك فكم
وصلت إلى المستصعبات من الأمور واستخرجت الأشياء الممتنعة ^(٥) . وفى كلا
الحالين نحن نرى أنه يفخر بنفسه وبإصراره ويمتدحهما أكثر من مدحه لكافور
ولا يستعبد أن يكون الشاعر قد انتهى إلى هذا الأسلوب بعد أن لاحظ غرام المصريين
بالتورية والتعبير ذى الدالتين : الظاهرة والباطنة .

وفى مصر راح المتنبي يتخفى وراء عشق البدويات ، معرضاً عن الحضريات
الموهبات ذوات الجمال الزائف المصنوع ، "رامزاً" بذلك إلى حياته التى يعيشها
مقارناً إياها بصدق الحياة التى عاشها فى حلب ^(٦) .

ما أوجه الحضرا المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

إن الشاعر هنا يتعامل مع أسلوب جديد ، هو الأسلوب الرمزي . فهو لم يقصد في نسيبه هذا إلى تصوير عواطفه نحو النساء على ما يفهم من ظاهره ، إنما كان يقصد حبيبه القديم سيف الدولة ، والحياة إلى جواره بعد أن قضت عليه الأيام - رغ أنفه - أن يفارقه ^(٧) نلاحظ ذلك في كثير من مدائحه لكافور .. ففي أول قصيدة أنشدها إياه يقول :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى	وقد كان غدرأ فكن أنت وافيأ
واعلم أن البين يشكيك بُعده	فلسـت فؤادى إذ رأيتك شاكيا
فإن دموع العين غدر بريها	إذا كن إثر الغادرين حواريا

لقد "رمز" إلى سيف الدولة بذلك الحبيب الغادر الذى ينازعه قلبه الشوق والحنين إليه ، فيزجر هذا القلب ، ويحملة على أن يكف عن ذكر من لم يرع عرى المودة والوفاء . إن اصطناع "الرمزية" فى أسلوبه إنما جاء تعبيراً عن آماله المحبوسة وعواطفه المكبوتة تحت وطأة السياسة المعادية لاتجاهه .

ويتعرض الجرجاني لقصيدة الشاعر فى وصف الحمى التى اعترته بمصر ويكاد يذكرها كلها على أنها من الجديد المبتكر ، والتى يقول فيها :

وزائرتى كأن بها حياء	فليس تزور إلا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا	فعافتها .. وباتت فى عظامى
يضيق الجلد عن نفسى وعنهما	فتوسعه بأنواع السقام

وهذه القصيدة - كما يقول الجرجاني - كلها مختارة ، ولا يعلم أحد في معناها مثلها ، والأبيات التي وصف فيها الحمى اخترع أكثر معانيها ، فجاءت مطبوعة مصنوعة ^(٨) .

أما الدكتور طه حسين فيقول عنها أنها من أرق الشعر العربي وأعذبه وأرقاه وأشدّه استثارة للحزن وتحريقاً للقلب الحساسة الشاعرة ^(٩) .
وهكذا جاءت كافوريات أبي الطيب - أو شعره المصرى - مرتكزة على محورين لا ثالث لهما ^(١٠) :

أولهما : قصائد ذاتية تعنى أول ما تعنى بالتعبير عن عواطف الشاعر الخاصة وآماله وآلامه ورجائه ويأسه من ناحية ، وحنينه وشوقه إلى سيف الدولة وعتابه وندمه على مفارقتها من ناحية أخرى .

ثانياً : مديح ملغوم يتوسل به الشاعر إلى حاجته لدى كافور وإن كانت نفسه لا تطاوعه عليه فيملأه بأنفاس الهجاء والإشارات الخفية التي لا تلبث أن تفسرها لنا قصائد المديح الأخرى ، أو تلك القصائد التي أخلصها للهجاء ليتسنى لنا أن نفهم مراميها فيها على وجهها الصحيح بمعونة هذه المفاتيح الضرورية لفهم المدح الهجائي .

فعندما يقول هاجياً كافور:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بضمن وما تفى العناقيد

العبد ليس لعبد صالح بأخ لو أنه فى ثياب الحر مولود
لا تشتري العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مأكيد

نقول إننا عندما نستمع إلى الشاعر فى هذه الأبيات سواء كان على حق فى هجائه أو متجنياً ، فإننا نتخيل أن أجيالاً من المصريين قد تغنت بهذه الأبيات المحكمة النسيج ، القوية فى معناها ومؤداها ، خاصة إذا أدركنا أن الشخصية المصرية كانت ساخطة على حاكمها غير مجاهرة فى خصومتها^(١١) .

ومع أننا لا يمكن أن نعدّ المتنبي شاعراً مصرياً ، لكنه ويوعى الفنان المقتدر أحس بالروح المصرية ، وعرف شيئاً من مميزات شخصيتها . وما نظن المتنبي كتب أبياته فى كافور إرضاءً لنزعة السخط فحسب ، وإنما غنى للشخصية المصرية غناء الفنان الذى يعرف ما يطرب جمهوره ليحقق الإيذاء وليمجد ذاته بذيوع شهرته وهنا يظهر بوضوح أثر مصر فى شعر أبى الطيب ...

فإن كان قد غفل عن كل مظاهر الحياة فيها ، فإن مصر لم تكن لتغفل عن التأثير فيه على وجه من الوجوه . ففيها انتهى طموحه ، وفيها شعر بأنه خدع عن نفسه رغم ظنه بأنه كان يخدع كافوراً . ومن هنا نستطيع أن ندرك عمق إحساسه بخيبة الأمل الإخفاق الذى بلغ حد الإحباط ، فهو لم يفقد ما أمله فى كافور فحسب بل إنه شعر بفقدان القدرة على الحكم على الناس والأشياء عندما اكتشف - فى نهاية الأمر - أنه هو المخدوع . هنا فاضت نفسه بالمرارة والأسى ، خاصة بعد أن وجد نفسه محاصراً مراقباً معزولاً ممنوعاً من الرحيل فازداد انكفاؤه على ذاته يغنى

ألمه وإخفاقه ، ويندب حظه وزمانه ، ثم يتعدى ذلك كله ويتجاوزهُ ليشمل الحياة وما وراءها متأملاً في طبعها وأحداثها ، ناشراً في تأملاته روح الحزن والقنوط
وسواء أردنا أولم نرد فإن لمصر فضلين على المتنبي لا يستطيع هو ولا نستطيع
نحن أن ننكرهما^(١٢) :

١. أنها رقت غناء وعلمته الحزن الطويل العميق الذي يكاد يرقى إلى
الفلسفة .

٢. أنها أنطقته بأشد شعره حزناً ، وأبلغه من النفس أثراً في ميميته
التي يذكر فيها مرضه ، وفي نونيته لتي يشكو فيها الزمان :
صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغضة كلهم منه وإن سرَّ بعضهم أحياناً
إلى أن يقول :

كل ما لم يكن من الصعب في الأنفس فيها إذ هو كانا
والقتامة في القصيدة واضحة ، والتشاؤم بين ، والمرارة غير خافية . وذلك كله
مغلف بحكمة بالغة هي بالطبع إضافة إلى ثقافته الحياتية ، ونعنى بها تجربته في
مصر .

فهو لم يعرف الحياة الهادئة التي تملؤها الهموم الملحة كما عرفها في مصر
كان خليقاً أن يعرفها في السجن عندما ادعى النبوة ولكنه كان شاباً قليل التجربة
وعند سيف الدولة كان مشغولاً بالقصر والحرب والمكائد وجمع المال . أما في مصر

وفى ظل كافور ، فقد أتيح له السكون والهدوء ، فلم يعرض له احد بمكيدة ولا حسد ولم يضيق عليه فى حياته المادية ، وإنما وضع على نار هادئة من الوعد والإخلاف فنضجت نفسه نضجاً بطيئاً ولكنه نضج صحيح . وتعلم كيف يطيل التفكير دون أن تشغله الثورة عن التعمق والاستقصاء .

ولعل أجمل ما قاله المتنبي فى مصر هو " الغناء " ^(١٢) ، الذى صور فيه حزنه وألمه واغترابه ، وهذه البطالة التى فرضت عليه .

كان طائراً تعود الهواء الطلق والفضاء العريض ، فإذا هو سجين فى سجن غريب بلا قضبان ولا فكاك . لقد فقد كل أسلحته فى معركة ظنّها - فى البداية سهلة لكن الدوائر دارت وسقط عاجزاً فى قبضتها ، ومن ثم فلم يكن أمامه سوى الأنين الجريح المكوم .

ويزعم أبو الطيب المتنبي أنه أعفى طبعه واغتنم الراحة منذ فارق آل حمدان فهل حقاً هبط مستواه الفنى بمصر عن الشام ؟؟؟

الواقع أن المتنبي لم يعف طبعه ولم يغتنم الراحة كما زعم ، وإنما عاش حياة جديدة لم يحياها من قبل ، استجاب لها فنه فبدت فيه سمات لم يعرفها شعره . إذ لم تعد دواعى القول تعجّله إلى الارتجال أو ما يشبهه لأن صلته بكافور لم تكن كصلته بسيف الدولة .

كما أن مصر شغلت أبا الطيب عن أى شاغل آخر ، وهيات لنفسه الانفعال الصادق والحزن الحقيقى ، فإن تغيرت دواعى القول فى كل من الإقليمين الشامى

والمصرى ، فقد كانت دواعيه بمصر عميقة الغور ، فلا بدع أن أنتج فيها من القصائد ما يعد من أروع الشعر العربي جميعه ^(١٤) .

ولعل قصيدته الميمية فى وصف الحمى والتي سبقت الإشارة إليها خير مثال على ما نقول إنها لم تكلف الشاعر من الجهد أو العناء ما تعود أن يتكلفه فى غيرها من قصائده ، وإنما فاضت بها نفسه ، وانطلق بها لسانه ، وجرى بها قلمه من غير اعتساف أو تكلف .

ولنقرأ معاً هذه الأبيات :

ولما صارود الناس خبا	جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه	لعلمى أنه بعض الأنام
يحب العاقلون على التصافى	وحسب الجاهلين على الوسام
وأنف من أخى لأبى وأمى	إذا لم أجده من الكرام

إن هذه القصيدة وغيرها توضح أن أثر مصر على أبى الطيب لم يقتصر على موضوعاته وأغراضه فحسب ، بل تعداه إلى الارتقاء بأسلوب صياغته وتراكيبه حتى بلغ أقصى درجات نضجه وروعته .

فشعره الذى قاله بمصر ، أو الذى ألهمته إياه مصر ، مختار كله برىء من السخف واللغو أو كاد ^(١٥) . وإن كان شعره فى "الكافوريات" أضعف من شعره فى "السيفيات" ، إلا أن شعر الكافوريات لم يخل من صفات أخرى وفرتها مصر لشعره . فالشعر صفات أخرى غير القوة كالجمال والوضوح والبساطة ، حيث تخلص

المتنبي من الوعورة والغرابة والتكلف والتصنع ، كما ابتعد عن الحوشية ، ومال إلى السلاسة والعذوبة ^(١٦) .

إن الروح المصرية لتبسط ظلالها على "مصرياته" بشكل لا تخطئه الأذن ولا يغفله الحس . فالحياة الزراعية الرتيبة التي لا تكلف المصريين عنثاً ولا مشقة واعتدال الطقس ، وصفاء السماء والماء ، كل ذلك انعكس على شعر أبي الطيب فبرئت أساليبه من الاستكراه والتععر . كما لم يكن ليغفل ذكاءه ويمضى في مبالغاته التي لم تكن لتزوج بين المثقفين والمتلقين لشعره من المصريين ^(١٧) .

وفي شعره المصرى رفرفت روح الحزن المصرية بجناحيها ...

فالحزن سمة من سمات الروح المصرية منذ كتاب الموتى وحتى اليوم . ولا تزال مصر البلد الوحيد في العالم الذي يقضى أهله أعيادهم في رفقة الموتى ونلمح هذا التأثير جلياً وواضحاً في رثائه وغنائه وعتابه ومقدماته الذاتية كما نلمح أيضاً عادة مصرية صميمة عندما يخاطب الناعي الميت طالباً أن يرد عليه كما في قوله في رثاء "فاتك" :

برء حشاي إن استطعت بلفظة فلقـد تضر إذا تشاء وتنفع

وفي المقابل ، نرى روح المرح والفكاهة وروح الدعابة تسيطر على جانب كبير من هجائه . وهل هناك ما هو أكثر بعثاً على الضحك من هذه الصورة الفكاهة التي صور فيها كافوراً عقب أول لقاء بينهما :

أميتاً وإخلافاً وغدراً وخسّة وجنبا شخصاً لحت لي أم مخازيا ؟

لقد وفق المتنبي في أن يرسم لكافور صوراً شديدة السخرية ، تبعث على الضحك ، استغل فيها شكله ولونه وغلظ شفثيه وبطنته . ولم يترك فيه زاوية إلا وعرضها عرضاً كاريكاتورياً كانت مادة للدعابة والفكاهة .

ولعل أكثر ما استفاده الشاعر من مصر هو كثرة من روى عليه شعره من المصريين ومجاوريهم من المغاربة والأندلسيين والصقليين ، والذي كان فاتحة لانتشار شعره في كل هذه البلاد ، وما تبع ذلك - ولقرون طويلة بعد مقتله - من كثرة الدراسات والشروح عن شعره ^(١٨) .

وقد حفظ لنا التاريخ أسماء بعض الأعلام المصريين الذين صحبوا المتنبي ورووا عنه وتصدوا للكلام في أدبه ، وما منهم إلا شاعر أديب أو ناقد ، من أمثال عبد الله بن أبي الجوع ، ومحمد بن موسى بن عبد العزيز المعروف بابن جنى والملقب بسيبويه المصري وصاحب المجادلات الشهيرة مع الشاعر ، وأبي القاسم بن أبي الغفير الأنصاري ، وأبي محمد الحسين بن علي المعروف بابن وكيع والذي ألف رسالة سماها "المنصف للسارق والمسروق من المتنبي" ^(١٩)

* * *

وهكذا تركت مصر بصمتها على أبي الطيب وشعره ...
فصقلت موهبته الناضجة ، وألجأته إلى نفسه حيث استخرج منها الشعر
الرائع فى الحكمة والغناء الداتى ، وكفل له هديرها أن يعرف فى شعره صفات
أخرى غير القوة كالجمال والرقّة والسهولة والبساطة والاستواء . ودفعت بنفسه
الجموح إلى الكمون والاختفاء فاستنبطها واكتشف فيها قدرة غير محدودة على
الفكاهة والسخرية والتعريض القاتل والهجاء المقنع بالمدح ، فأمتعنا بفنّه الجميل
فى " مصرياته " التى تُعدُّ من أروع شعره ، والتى مثلت قمة نضجة الفنّى الذى لم
يتجاوزه بعد ذلك .

الهوامش

١. د. حسين مؤنس : مصر ورسالتها ، مطبوعات دار الشعب ، ١٩٧٦
٢. جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج٤ - ط دار الكتب المصرية .
٣. الحياة الأدبية والفكرية في مصر .
٤. د. شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ، دار المعارف، مصر ١٩٧١
٥. د. النعمان القاضي : كافوريات أبي الطيب ، مركز كتب الشرق الأوسط ، مصر ١٩٧٥ .
٦. السابق ، باختصار .
٧. د. درويش الجندی : الرمزية في الأدب العربي ، مجلة المورد ، العراق العدد الثالث ، المجلد السادس ١٩٧٧ .
٨. الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ط صيداء ١٩١٣ .
٩. د. طه حسين : مع المتنبي ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٦ .
١٠. كافوريات أبي الطيب ، مرجع سابق .
١١. د. أحمد السيد محمد : الشخصية المصرية في الأديين الفاطمي والأيوبي ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٦ .
١٢. السابق .

١٣. الشعر الغنائي (Lyric) هو قصائد صغار تصدر في مضمونها عن تعامل الشاعر/الذات مع البيئة والحياة والكون ، مع التركيز الشديد في اللغة واختيار الكلمات الموحية ، والاستخدام الدلالي للمفردات
١٤. أحمد الشايب: أبو الطيب المتنبي .. حياته وشعره ، مجموعة مقالات بيروت ١٩٨٢.
١٥. مع المتنبي ، مرجع سابق .
١٦. كافوريات أبي الطيب ، مرجع سابق .
١٧. السابق .
١٨. د. محسن غياض : مجلة المورد ، مرجع سابق .
١٩. الثعالبي : يتيمة الدهر .

الفصل السابع :

المثنى .. والسرققات الأدبية

اهتم النقاد أياً اهتمام بمعرفة الجديد والمسروق لدى كل شاعر . ذلك لأن دراسة هذين الجانبين ستضع أيدينا على مدى التطور الذي أصاب الحياة في جميع مرافقها المادية والمعنوية ، لأن كل تطور يصيب أية زاوية من زوايا الحياة سينعكس أثره بالضرورة على الأدب وعلى السنة الأدباء . كما سيوقفنا على مدى تفاعل هؤلاء الأدباء مع البيئة والظروف المتغيرة التي يعيشونها . ثم إن معرفة الجديد والمسروق لدى كل أديب سيكشف لنا مقدار ثقافته ، ومدى تمثله للتيارات الثقافية التي ظهرت واستفاضت في زمانه ، وموقفه من هذه التيارات المختلفة وقدرته على التأثير فيها أو التأثر بها ، مما يحدد لنا شخصيته الأدبية ، ويوضح لنا مقدار نضجه الفني واحترامه لنفسه وفنه . كما أنها تفصح – في الوقت ذاته – عن مشرب الأديب واتجاهه النفسي وتكوينه الأدبي وقوامه الثقافي ، وذلك حينما أمامنا شخصية الأديب الذي يستوحيه غالباً ويصاحبه في تياره ويسير معه في فلكه .

وبمعرفة الجديد والمسروق لدى كل أديب ، سنستطيع أن نعرف المنزلة الأدبية التي يتبوأها في ركب الأدباء . ولن نستطيع تحديد هذه المنزلة تحديداً صارماً ما لم نعرف الجديد الذي أضافه إلى تراثنا الفني ، والقديم الذي أضاف إليه شيئاً يبرز به شخصيته ويثبت وجوده ، والمسروق الذي سطا عليه وخاتلنا دون أن يكون له فيه فضل أو أثر

وهى أيضاً - أى تلك المعرفة - لون من الجهارة تؤذن السارق بالفضيحة والهوان فينصرف عنها إلى التجديد والابتكار إذا كان من ذوى الاستعداد الفنى وبذلك تسير القافلة إلى الأمام بدلاً من لفها حول نفسها ، وعكوفها - جامدة - على آثار أسلافها .

وليس معنى ذلك أننا نحرم على الأدباء الانتفاع بآثار السابقين ... لا ، بل نحن نوجب الإطلاع على آثارهم ، والإحاطة بالبصيرة بنتائجهم . كما نقر الأخذ عنهم والانتفاع بهم استجابة لقانون التطور العام ، ولكن فى حدود القواعد التى أقرها السابقون والتى نراها قواعد جيدة نرضى عنها ونؤمن بها عن ثقة وبصر ...، وهى

١. أن السرقة لا تكون فى المعانى العامة ، ولا فيما شاعت بين الناس حتى غدت كالفطرة العامة ^(١) .

٢. أن السرقة لا تكون إلا فى المعانى الخاصة ذات الارتباط الوثيق بمقام معين أو تجربة ذاتية خاصة ^(٢) .

٣. إن مبتكر الفن الأدبى أو الصورة الخيالية أو العبارة الجمالية مفضل على سائر الآخذين عنه ^(٣) .

٤. إن من أخذ معنى من غيره فزاد فيه بتوليد شىء جديد منه لا يُعدُّ سارقاً ^(٤) .

٥. إن من أخذ معنى فعكسه إلى ضده لا يُعدُّ سارقاً ^(٥) .

٦. إن من أخذ المعنى واللفظ برمتيهما ، أو أخذ المعنى فشوه جماله
أو أساء معرضه ، لزمه عيب السرقة ومذمة القصور^(٦) .

تلك هي الأسس الأصلية والصائبة التي تلائم منطق العدل والإنصاف في
جانبيها النظري . أما في المجال لتطبيقاتي فالأمر مختلف .

فالحاتمي مثلاً تعقب أبا الطيب المتنبي راصداً ظالماً راداً كل بيت مما كتب
إلى مصدر قريب أو بعيد ، حتى انتهى في الحكم على كل نتاجه بأنه مسروق ...و
ما أعرف لك إحساناً في جميع ما ذكرته . إنما أنت سارق متنبع ، وأخذ
مقصر ، وفيما تقدم من هذه المعاني التي ابتكرها أصحابها مندوحة عن التشاغل
بقولك^(٧) .

وينقل الجرجاني في "الوساطة" قول آخر عن المتنبي :

ما يسلم له بيت ، ولا يخلص من معانيه معنى ، وما هو إلا ليت مغر وسارق
مختلس

ويقول العبيدي في "الإبانة" :

ولقد تأملت أشعاره كلها – يعنى المتنبي – فوجدت الأبيات التي يفخر بها
أصحابه ، تُعدُّ بها آدابه من أشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم
المخترة منسوخة .

وهكذا عكف النقاد قديماً على دراسة سرقات المتنبي بشكل يفوق عكوفهم
على أى جانب آخر من جوانب إبداعه ومن الكتب التي تم تأليفها في هذا الأمر

١- الإبانة عن سرقات المتنبي لأبي سعيد محمد بن أحمد العبيدي المتوفي سنة ٤٣٢هـ.

٢- الكشف عن مساوي شعر المتنبي لأبي القاسم إسماعيل بن عباد الشهير بالصاحب والمتوفي سنة ٤٥٠هـ.

٣- سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسام النحوي ، وهو على الراجح صاحب " الذخيرة " - والمتوفي سنة ٤٥٠هـ.

٤- الرسالة الموضحة للحاقي المتوفي سنة ٣٨٨هـ.

٥- الفتح على أبي الفتح لمحمد بن فورجة المتوفي في أواسط القرن الخامس الهجري ، وله أيضاً التجنى على ابن جنى في شرحه لديوان المتنبي

٦- الوساطة لعبد العزيز الجرجاني .

٧- يتيمة الدهر للثعالبي .

وإن كان الأخيران قد تكلمنا كثيراً عن إحسان أبي الطيب المتنبي في شعره .
والقارئ لهذه الكتب وغيرها يجد أن مؤلفيها ردوا كثيراً من أشعار المتنبي ونسبوها إلى شاعر آخر مشهور أو مغمور إلى حد أنه أصبح من الصعب تحديد الأشخاص الذين اتخذهم أبو الطيب أساتذة يتلقى عنهم الوحي ويأخذ منهم المعاني والأفكار.

وإذا كان ابن ابن الرومي وأبو تمام والبحترى في مقدمة من ذكروا أنه أخذ عنهم واستقى أفكاره منهم فإن هناك من الأسماء التي أقر هؤلاء النقاد أنه أغار عليها وانتفع بها ما لا عهد لنا به من قبل لا إلف لنا به في مجال التاريخ الأدبي

الذى لا يستطيع استقراء كل شاعر واستقصاء بصورة تنفى شبهة نسيان البعض أو عدم العلم به .

وقد ذكر الجرجاني فى "الوساطة" عدداً من الشعراء الذين قيل إن المتنبي أخذ عنهم وعددهم يزيد على المئة منهم امرؤ القيس ، وسالم بن وابصة ، والفرزدق وجريز ، وابن الرقيات ، وأبودلف ، وابن الخياط وغيرهم .

وهذا افتئات على الشاعر ولا شك . فمن المستبعد أن يغير المتنبي على معانى أولئك السابقين عليه وفيهم الخامل الذى أسقطه التاريخ والنابه الذى وجد له مكاناً فى موكب الخالدين . ذلك فضلاً عن أن تشابه الفكرة لا يعنى بالضرورة أن الشاعر قد أخذها من شاعر آخر سابق عليه . فالمعانى الإنسانية العامة مثل : الحب والوفاء ، والبطولة ، والفتوة ، وحب المال ، والمجد ، والصراع من أجل لتفوق والاستعلاء ، والتغنى بالقوة والسيف ، كل هذه المعانى وغيرها التى احتفى بها أبو الطيب ملك مشترك للإنسانية جمعاء . وما زال الشعراء منذ العصر الجاهلى وحتى عصرنا الحديث يتغنون بها لكنهم يختلفون فى طريقة التعبير .

ومعنى ذلك أن مبحث السرقات الأدبية بالنسبة لأبى الطيب لا يحدد لنا الشخص أو الأشخاص الذين أعجب بهم وأتخذهم أمثلة له يستقى منهم الأفكار ويأخذ عنهم المعانى ، بقدر ما يدلنا على أننا أمام رجل موسوعى الثقافة كثير القراءة ، مستوعب للتراث الأدبى بأعلامه وخامليه ، يتلقف الفائدة أنى كان مصدرها ، ويتمثل ما لقيه ووقع عليه ما دام مسائراً لوجهته مصوراً لفكرته ^(٨) .

وإذا كان العميدى قد أجهد نفسه ليثبت انتفاع المتنبي بالطائين وبابن الرومى^(٩) ، فإن الشاعر نفسه يعترف بذلك ولا يدفعه عندما يقول :
أَوْجُورُ لِلأديبِ ألاَّ يعرفَ شعرَ أبى تمامٍ وهو أستاذُ كلِّ من قال الشعرَ
بعده^(١٠)

كما أننا نعلم أنه عندما قتل فى طريق الأهواز ، وجد معه ديوانا أبى تمام
والبحتري بخطه وعلى حواشى الأوراق علامة كل بيت أخذ معناه .
ويدعو القاضى الجرجانى إلى التأنى والتحرز والتأكد قبل اتهام شاعر بأنه
أغار على معنى شاعر سابق أو معاصر ، فيقول :

وهذا باب يحتاج إلى إنعام الفكر ، وشدة البحث ، وحسن النظر ، والتحرز من
الإقدام قبل التبيين ، والحكم إلا بعد ثقة ، وقد يغمض حتى يخفى ، وقد يذهب منه
الواضح الجلى على من لم يكن مرتاضاً بالصناعة ، متدرباً بالنقد وقد تحمّل العصبية
فيه العالم على دفع العيان ، وجحد المشاهدة ، فلا يزال على التعرض للفضيحة
والاشتجار بالجور والتحامل^(١١)

إلا أن هذا الميزان المستقيم ، وتلك النزاهة فى الحكم لم تكن ديدن كل الذين
تعرضوا لشعر أبى الطيب واتهموه بالسرقة .

فالساحب بن عباد مثلاً - وما أدراك بعنف الخصومة بينه وبين المتنبي
ينصرف عن تتبع سرقاته ولماذا ؟ .. لأن : السرقات ليست من العيوب الخاصة
بالتنبي ، وليست بالجناية التى تقتضى منه أن يجلس له كل مرصد ، ولكنها عيب
قديم درج عليه الشعراء^(١٢) .

ونحن هنا أمام منهج نقدي غريب . فما ينسحب على الشعراء ، كل الشعراء لابد أن ينسحب بالضرورة على أبي الطيب . وما دام الشعراء يغيرون على أفكار ومعاني الآخرين فلم يُستثنى المتنبي ؟ أليس واحداً منهم ؟؟. وهكذا تثبت التهمة دون بحث أو تدقيق أو بذل أدنى جهد أو عناء ولم التحرز قبل إصدار الحكم الجائر ما دام سوء القصد مبيت ؟؟؟ .

ويقول الأستاذ عباس حسن : إن المتنبي كان من رواة الشعر، ومن أكبر حفاظ الدواوين . ومثل هذا قد ينطق في شعره كلام غيره دون تديرو ولا ترتيب سابق . وقد يجرى على لسانه ما ليس له دون أن يشعر . ومكانته الأدبية وثقته بنفسه بل وغروره وكبرياؤه وكثرة حسّاده وأعدائه الذين يتربصون به الدوائر ، كل أولئك يمنعه أن يسرق كلام غيره وأن ينتهب ما ليس له (١٣) .

وهذا رأى موضوعي على نحو ما ... لا ينفي توارد الخواطر ، أو خروج المخزون في اللاوعي دون قصد ، لكنه ينفي سبق الإصرار أو سوء النية . وهو يتفق – إلى حد بعيد – مع ما قرره المتنبي عن نفسه عندما سئل عن اتفاق الخواطر فقال:

الشعر ميدان والشعراء فرسان ، فربما اتفق توارد الخواطر كما يقع الحافر على الحافر .

لكن تلك الموضوعية تفرغ من محتواها عندما يستطرد الأستاذ عباس حسن ناسياً ما سبق أن قرره منذ لحظات ، فيقول :

على أنى – بالرغم من ذلك – وقعت على أبيات كثيرة لا أستطيع الدفاع عنها ولا إخراجها من السرقات (١٤) .

وبعد أن يسوق تلك الأمثلة يقرر مطمئناً :

إن المتنبي مختلس زائف العظمة ، لا صلة بين حقيقة نفسه وظاهرة غروره وادعائه . ومن استباح أن يسرق أبا تمام والبحترى استباح أن يسرق غيرهما ، وأن يعرض تلك النفائس المسروقة مموهة مصقولة على أنها ملك يمينه وهى تبرأ من فعلته وجراته .

ويفرد الدكتور أحمد نصيف الجاني^(١٥) بحثاً كاملاً عن أثر شعر " العكوك " ^(١٦) فى شعر المتنبي ، يبدأه بقوله :

ما أكثر ما تبدو الأشياء الغريبة ظريفة . وقد يظهر الرجل عظيماً ووراء عظمته آخرون . وقد لا يكون الإنسان عظيماً فى فنه وهو مدين بجزء من عظمته الفنية للآخرين . وربما تبدو هذه القضية غريبة وهذا شأن المتنبي . فجزء من عظمته الشعرية يرجع إلى شعراء كانوا فى الظلال ، ولم تسمح لهم عوامل عديدة بالظهور أمام الأضواء ، لأنهم لم يترددوا على أبواب الخلفاء وقصورهم المفعمة بالأضواء والمظاهر الخلافة . وما أكثر ما تكون المظاهر الخلافة زائفة وتكون الحقائق الأصلية فى الأعماق بعيداً عن الأضواء .

ثم يسوق الدكتور الجاني ستة عشرة صورة من أشعار العكوك اقتبسها أبو الطيب . ويخلص سيادته إلى تفوق شعر " العكوك " خاصة فى رسم الصورة التى كانت أقوى من صور المتنبي تأثيراً وأكثرها إحياءً .

أما صاحب "الصباح المنبى" ^(١٧)، فيفرد عشرات الصفحات للأبيات التي سرق المتنبي صوراً أو ألفاظاً أو معاني منها ، وهى لشعراء سابقين عليه . كما يورد فى المقابل ما أخذه صاحب وأبو إسحق الصابى والخوارزمى من أشعار أبى الطيب وصاغوه نثراً فى بعض رسائلهم ، كما يلحق ذلك بما أخذه بعض الشعراء منه .

ويحاول المستشرق كورفروا دمويين ^(١٨) حيال هذا السيل من الاتهامات أن يدافع :

"إن إقامة الحجة على أن كاتباً مشهوراً محروم من الأصالة ، وأنه سرق أفكاره وصوره وأوزانه من قدماء الكتاب المعروفين أقل منه ، صفق لها بعض النقاد وزمروا بفضاظة " .

ويخفف الجرجانى من وطأة الهجوم ويلتمس العذر ^(١٩) :

" حدثنى عمن تعظم من أوائل الشعراء أو من تفتح به طبقات المحدثين ، هل خلص لك شعر أحدهم من شائبة وصفا من كدر ومعابة ، وأبو الطيب واحد فى الجملة ، فكيف خلص بالظلم من بينها ؟؟ .

ويجدر التنويه هنا إلى أن لفظ " السرقة " لا يروق لبعض الأدباء والنقاد ويستعملون مكانه ما يؤدى معناه دون أن يثير فى النفس ما يثيره لفظ " السرقة " مثل : الأخذ ، والاتباع ، والاقتباس .. وغيرها . لكن الحقيقة أن استعمال لفظ " السرقة " مع تحديده التحديد العلمى الكافى كما فعل أسلافنا من النقاد أحسن فى رأى من أى لفظ آخر ، لأنه سيفضح كل من يسطو على نتاج الناس ممن يصرف

الأدباء إلى الابتكار لا التقليد ، وسيبرىء التحديد العلمى كثيراً من هذه التهمة التى يتهمون بها جزافاً تشفياً وانتقاماً ، أوجهاً واضطراباً^(٢٠) .

وإذا ما عدنا إلى سرقات أبى الطيب المتنبى ، نقول إننا من جانبنا لا نستطيع أن نكرر بعض ما قيل ، لكننا نأبى أن نسلم بكل ما قيل وما أثير حول الشاعر من دراسات فى مجال السرقات الأدبية . فأصحابها لم يلتزموا جانب الإنصاف والدقة والحيدة ، ذلك لأن الحسد والوقية استجابة للخصوم أو إرضاء للحاكمين والحرص على إذلال ذلك الشاعر المترفع المتعالى ، كل ذلك فتح باب اتهامه بالسرقة على مصراعيه ؛ لأنه أقرب طريق للهدم ، وأسهل دعوة يدعيها الخصم ما دامت لن تكلفه كثيراً من عناء المناقشة والدرس والتحليل والتعليل . ذلك فضلاً عن إغراء السابقين لغيرهم من الباحثين بالسير على آثارهم حتى خلفوا لنا هذا القدر من الدراسات .

ولا يعنى هذا أن أبا الطيب المتنبى برىء تماماً من تهمة السطو على إبداع غيره ، فالأخذ عن السابقين سنة من سنن الحياة . وهذا ما جعلنا نتفق مع ما أورده صاحب "المتنبى بين ناقديه" من أن الشاعر كان فى أغلب الأحيان : يجيد الإجابة المشكورة ، ويزيد الزيادة التى تشفع له وتعفيه من اللوم وتبرئه من العيب^(٢١) .

الهوامش

١. عبد العزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه .
٢. ابن الأثير: المثل السائر.
٣. أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي .
٤. أبو هلال العسكري : الصناعتين .
٥. ابن الأثير: المثل السائر.
٦. السابق .
٧. ياقوت الحموي : معجم الأدباء .
٨. د. محمد عبد الرحمن شعيب: المتنبي بين ناقديه ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤.
٩. الإبانة عن سرقات المتنبي .
١٠. يوسف البديعي: الصبح المنبى عن حيثية المتنبي ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣.
١١. الوساطة ، مرجع سابق .
١٢. الكشف عن مساوئ المتنبي .
١٣. عباس حسن : المتنبي وشوقي ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤.
١٤. السابق .

١٥. مقال بمجلة المورد ، العراق ، عدد خاص عن المتنبي ، العدد الثالث

المجلد الثالث ١٩٧٧ .

١٦. هو أبو الحسن علي بن جبلة بن عبد الله المعروف بالعكوك

(١٦٠ - ٢١٢هـ).

١٧. يوسف البديعي ، مرجع سابق .

١٨. مجلة المورد ، مرجع سابق .

١٩. الوساطة .

٢٠. المتنبي بين ناقديه ، مرجع سابق .

٢١. د. محمد عبد الرحمن شعيب ، مرجع سابق .

الفصل الثامن :

العاطفة الدينية والقرمطية
عند أبي الطيب المتنبي

بداءة ...

لا نستطيع أن ننكر أن أكثر شعراء العرب لم يعنوا بإثبات خواطرهم الدينية إلا في الندرة ، بحيث أصبح من المتعذر تحديد موقفهم من المعتقد الديني الذي أخذوا حياله موقفاً محايداً إلا بالرجوع إلى سيرتهم الذاتية .

لكن الذي يسترعى النظر في شعر أبي الطيب المتنبي – ومن خلال ديوانه أن فيه إشارات كثيرة تختلف وضوحاً وخفاءً تنم عن وهن العقيدة ، وضعف الإيمان وغلبة الآداب الجاهلية في نفسه على الآداب الإسلامية . ففي ريق شبابه واكتمال قوته يقول :

أى محــــل أرتقى	أى عظمــــم أتقى
وكل ما قد خلق الله	ــــه ومــــالم يخلق
محتقــــر فى همتى	كشــــعة فى مفرقتى

ولا جدال في أن عصر المتنبي كان عصر شك واضطراب اشتعل فيه النزاع بين الطوائف والمذاهب وضعفت فيه العقيدة الدينية ، وساور الشك النفوس وطغى على العقائد . وإلا أن ضعف العقيدة عند أبي الطيب يرجع في المقام الأول إلى مزاجه وتكوينه الشخصي ، إذ كان – بطبيعته – رجلاً واقعياً الأول إلى مزاجه وتكوينه الشخصي ، إذا كان – بطبيعته – رجلاً واقعياً مسرفاً في واقعته ، تسرى فيه ذات متورمة بتضخم (الأنا) الأمر الذي يغنيه – على حد وهمه – عن الاستناد

إلى أى " قوة " خارجية أخرى ، بعكس الشخصية السوية فيها روح الدين ، والتي توقن بقوة علوية تتقى بها عصف الحياة .

لذا نراه ^(١) قد زوى وجهه عن مباحث ما وراء الطبيعة وأبقاها هناك لا يسمح لها بالبروز إلى واعيته والتحرك لإقلاق باله إلا فى الأوقات القليلة التى يخفى فيها طمعه وتفتت آماله ، ثم تعود إلى زواية سجنها السحيق حيث لا يزعجه اشتجارها ولا يشغله عن دنياه ضجيجها وأسرارها .

لقد غلبت عليه عاطفتان ملكتا عقله وقلبه وجهده : حب المال وحب المجد ولم تكن هناك عاطفة ثالثة تعزیه عنهما حين أحسن أنهما أفلتا من يده ، فأخذ يسب الدهر ويلعن الأقدار .

لقد شغل أبو الطيب عن أمور دينه بأمور دنياه ، يؤكد ذلك ديوانه والومضات التى نلمحها هنا وهناك تخفت حيناً وتعلوا حيناً حتى تصل إلى حد الصراخ معلنة أن العقيدة الدينية هى آخر ما كان يفكر فيه هذا الشاعر الذى كانت ذاته محور ذاته .

وانظر قوله فى سيف الدولة :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئست حين إذا من الإسلام

لقد جعل من سيف الدولة أفضل الخلق كافة .. حتى الأنبياء .

وانظر قوله فى محمد الأوسى :- لم يخلق الرحمن مثل محمد ... أحداً ، وظنى

أنه لا يخلق المبالغة المجوجة نفسها ، وإن اختلفت الكلمات .

وانظر قوله فى بدر الدين بن عمار:

لو كان علمك بالإله مقسماً فى الناس ما بعث الإله رسولا

أو كان لفظك فيهموماً أنـ — زل القرآن والتوراة والإنجيل

تنويع آخر على اللحن الساقط نفسه ، وترديد للمبالغة نفسها والجرأة والاستهتار. وهذا الإفراط لم يعجب شراح ديوانه حتى أن العكبرى يقول معقياً على البيت الأول ^(٢): "وقد أخطأ أبو الطيب فى هذا الإفراط وتجاوز الحد ، ويقول عن البيت الثانى : وهذه مبالغة تدخل النار نعوذ بالله من هذا الإفراط وهذا الغلو"

وتواصل المأساة فى مدحه بدر الدين بن عمار:

يا بدر إنك والحديث شجون من لم يكن لمثاله تكوين

تعظمت حتى لو تكون أمانة ما كان مؤتمناً بها جبرين

يقول الواحدى ^(٣): " هذا إفراط وتجاوز حد يدل على رقة دين وسخافة عقل بل ويدل على زندقة وكفر " .

ويقول صاحب بن عباد معلقاً على البيت الثانى ^(٤): "وقلب هذه (اللام) إلى (نون) فى جبرين أبغض من وجه المنون ، ولا أحسب جبريل عليه السلام يرضى منه بهذا المجون ، هذا على ما فى البيت من الفساد والقبح " .

وتتقطر المأساة وتتصاعد إلى أن تقترب من حد الكفر الصريح فى مدحه للرجل نفسه .. بدر الدين بن عمار:

تتقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذى الأفلاك فيه والذى
ولقد رفع ممدوحه إلى مرتبة الألوهية ، ولو كان لها مكانة فى نفسه لما هبط بها
هذا الدرك .

وإذا كانت الأخبار قد حملت إلينا أنه كان ^(٥) : لا يصوم ولا يصلى ولا يقرأ
الفرآن الكريم ، بل وكان يشرب الخمر أحياناً إرضاءً لأمير أو كبير ، إلا أن ما تردد
عن إدعائه النبوة كاف وحده للحكم عليه بسوء العقيدة وفساد اليقين .
وانظر قوله مادحاً :

يا من نلوز من الزمان بظله أبداً ، ونطرد باسمه إبليساً
والبيت غنى عن الشرح ، فهو التقديم الحقيقى لنفسه ولعقيدة قائله الساقطة
فى هوة المنافع الدنيوية الزائلة التى كرس لها حياته .
وعلى ضوء ما تقدم وسبق طرحه ، فنحن لا نطمئن إلى ما ذكره صاحب "
المتنبى وشوقى " ^(٦) : "ورغم أن شعره جاء خلواً من الدعوة للدين والحض عليه وعلى
احترامه ، والإشادة بالأنبياء والأئمة وما يتصل بهذه الفواحي الكريمة . فمن
الإنصاف القول أن شعره خلا أيضاً من التقليل من شأن الدين أو تحقيره أو إظهار
الكراهية له ، بل خلا من كل ما يحض على الرذيلة ويدعو إلى الخلاعة والمجون
فلست تقع فيه على لهو أو لعب أو صغار " .

وإذا لم يكن تفضيل الممدوح على رسل الرحمن ورفعته أيضاً إلى مرتبة الألوهية
صغاراً فكيف يكون الصغار إذن ؟ ويبدو أن أستاذنا الفاضل لم يقرأ الديوان جيداً

ولم تلفت نظره تلك القصيدة التي ثار فيها على الإدارة الإلهية حين رأى عبداً مثل
كافور يحكم الخلق ، ويسمى هذه الإدارة شراً:

قضاء من اله العلى أرادہ ألا ربما كانت إرادته شراً

أما الأستاذ عباس محمود العقاد فيلتمس العذر للشاعر ، ويرجع كل
مغالاته إلى (٧):

"أنه كان اضطرار لمرضاة المدوحين والجري على هواهم ، وما عساه يصنع في
ذلك الزمن وقد كانوا لا يرضون عن الشاعر ولا تشبع نهماتهم من المدح إلا أن
يمدحهم بما لم يمدح به أحد قبلهم ، وأن يعمد إلى أقصى ما بلغه الشعراء من الغلو
فيضاعفه له " .

وذلك عذر أقبح من الذنب نفسه . فالأستاذ العقاد – الذي عرف عنه التدقيق
والتححيص – يتلمس الأسباب للشاعر كي يتاجر بأشرف واطهر عقيدة لقاء بضعة
أو حتى الآلاف من الدراهم – ناسياً أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق بفرض
أن أبا الطيب كان مضطراً إلى ذلك .

ويعترف الثعالبي – ضمناً – بفساد يقين الشاعر (٨): " إن هذا لا يطعن في
شاعريته ، فالديانة ليست عياراً على الشعراء ولا سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر
ولكن للإسلام حقه من الإجلال الذي لا يسوغ الإخلال به قولاً وفعلاً ونظماً "

ويتفق صاحب (الحكمة فى شعر المتنبي) ^(١) ، مع الثعالبي فيقول :

"ولكن المتنبي ظل الشاعر العظيم الذى أدى خدمات جليلة للعروبة لعلها تغفر له شطحات فكره وجنوح خياله الذى جعل من حكمه الدينية حلالاً يرتديها ممدوحوه ويرفلون فى ألفاظها الفخمة بينما تشير أصابع الاتهام بالزندقة والإلحاد إليه " .

وإذا ما كان للعاطفة الدينية فى نفس أبى الطيب كل هذا الضعف والوهن فهل كانت المتنبي قرمطياً؟؟؟.

فرض هذا السؤال نفس على كثير من المؤرخين والنقاد . والغريب أن الدكتور طه حسين يجيب على السؤال بالإيجاب .. لكن دونما سند ، فيقول ^(١٠) : "وهناك فى البادية وفى عصره كان المذهب النظرى للقرامطة وغلاة الشيعة ، ومن هناك أيضاً عاد شيعياً مغالياً لم يلبث أن تحول قرمطياً خالصاً " .

ويشايح الدكتور : شوقى ضيف ^(١١) هذا الاتجاه ، ويتخذ من حياة الشاعر بالكوفة إبان الثورات والغارات القرمطية ، ومن نزعة الشاعر إلى إرخاص الحياة واستباحة الدماء ذريعة لإثبات دعواه .

ويؤكد الأستاذ لوى ماسينيون ^(١٢) ما ذهب إليه بعض النقاد فى قرمطية أبى

الطيب ، فيقول عن بعض أبيات الشعر :

وكأنما عيسى بن مريم ذكره وكان عاذر شخصه المقبور

أو صادف رأس عاذر سيفه فى يوم معركة لأعيا عيسى

يقول المستشرق الفرنسي أن هذه الأبيات تفضح مريداً قديماً ، فالمسلم العادى
يجهل اسم "عاذر" ولكن القرامطة حفظوه .

ويؤيد الأستاذ أحمد أمين الاتجاه نفسه فيقول ^(١٣) : "وكان المتنبي متأثراً
بآثارهم - أى القرامطة - وولد فى ظلهم وتحت سلطانهم ، واصطبغ بصبغتهم وتعلم
علمهم " .

والقرامطة ، أو أصحاب المذهب القرمطى ، هم جماعة منشقة عن المذهب
الإسماعيلى ، قالوا بالتناسخ ، الأمر الذى خالفوا فيه أهل السنة والإسماعيلية على
السواء . وأساس عقيدتهم ^(١٤) هو الاعتراف بنبوة إسماعيل بن جعفر والإقرار بحياته
واستقاره وعودته ثانية إلى الأرض ليهدى الناس من جديد بعد أن يستشرى فيهم
الكفر والضلال.

وقد استباحوا فى سبيل إقرار مذهبهم كل محرم وعبثوا بكل قاعدة فى
المعتقد ^(١٥) ، إذ أسقطوا من تكاليف الشريعة ما أسقطوا ، فأحلوا الخمر ، ولم يوجبوا
الغسل من الجنابة ، وغيروا من هيئة الصلاة وطقوسها ، كما قالوا بشيوع الأموال
والنساء .

ولم يقف القرامطة عند حد محاولة تخريب العقيدة ^(١٦) ، بل تجاوزوا ذلك إلى
إنكار العبادات جملة وتفصيلاً والدعوة إلى الانحلال الخلقى وادعاء النبوة والألوهية
لأئمتهم .

ولعل أبشع جرائمهم ما أورده ابن كثير ^(١٧) من أنهم : دخلوا مكة عام ٢١٧هـ
بقيادة أبى الطاهر سليمان بن سعيد الجنابى وقتلوا الحجاج ودموا بجثثهم بئر

زمرم . وهدموا الكعبة ، وبزعوا الحجر الأسود وحمله إلى عاصمتهم (هجر) حيث
ظل لديهم بضعة وعشرين عاماً ، ولم يردوه إلا فى عام ٢٣٧هـ "
ويفسر شاعرهم دستورهم المتفسخ المتردى فى قوله ^(١٨)

خذى الدف يا هذى والعبى	وهزى هزاريك ثم اطربنى
تولى نبى بنى هاشم	وهذا نبى بنى يعرب
لكل نبى مضى شرعة	وهذى شرائع هذا النبى
فقد حطاً عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ، ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضى	وإن صوموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفاة	ولا زورة القبر فى يثرب
ولا تمنعى نفسك المعرسين	من أجنبى ومن أقرب
فكيف حالت لهذا الغريب	وصرت محرمة للأب ؟
أليس الفراس لمن ربّه	وسقاه فى الزمن الأجذب
وما الخمر إلا كماء السماء	حلال فقدست من مذهب

هذا هو دستورهم الضال المضل ، وتلك هى خطوط دعوتهم المنحلة
القدرة .. فأين صدى ذلك التفسخ كله فى شعر أبى الطيب؟؟ وهل فى ديوانه - أو
حتى سيرته - ما يشتم منه موالاته أو ميله لهذه الدعوة الساقطة ، أو حتى شبهة
اتفاقه معهم؟؟.

وأيضاً.....

أين شعره الذى يمجّد دعوتهم ، والتغنى بدعاتهم من أمثال عبد الله بن ميمون القداح ، وحمدان قرمط ، وأبى الطاهر الجناي مثلاً؟؟. وبفرض أن الشاعر قد ترك ذلك تقياً وسترأ ، فأين شعره الذى يشتم منه توجيه المسلمين إلى نبذ معتقداتهم الإسلامية والاستخفاف بمقدساتهم التى مرغها القرامطة فى التراب ؟

الواقع أن ^(١٩) " أول من أحدث هذه الخرافة - خرافة قرمطية المتنبي - فيما نعلم ، أحد الفئة المستشرقة هو الأستاذ بلاشير وقيد قوله هذا فى دائرة المعارف الإنسانية ، وقد اتبع الدكتور طه حسين بلاشير فيما قال لكنه نسب الاكتشاف لنفسه " .

ومن الغريب أن يقر ^(٢٠) كل من الدكتور شوقي ضيف وأحمد أمين بقرمطية أبى الطيب استناداً إلى الترابط المكانى بين الشاعر ومسرح الثورات القرمطية وهى الكوفة ، وإلى ظهور آثار المعرفة بهذه المذاهب وتلك النحل فى شعره ، مع أن هناك فرقاً كبيراً بين العلم بالعقيدة واعتناق العقيدة ذاتها ، ذلك لأن دائرة معارف الإنسان قد تتسع لكل ما يدور فى بيئته من ألوان الثقافات والمعارف ويعرفها معرفة دقيقة مستفيضة ولكنه لا يعتقد بصحة كثير منها .

ونحن إن كنا نملك بعض دليل ينفى قرمطية المتنبي من مثل إقدامه على هجاء القرامطة ، ونعت إمامهم بأنه إمام المبتلين ، فإن القائلين بقرمطيته لا يملكون أدنى دليل على ادعائهم . أليس هو المتسائل مشفقاً على أن ليس للخلافة من يدفع عنها القرامطة وغيرهم من الأعاجم الذين عصفوا بأمنها فى قوله :

أما للخلافة من مشفق على سيف دولتها الفاصل
ليس أبو الطيب إذن هو الذى يتبع إماماً يعتقد أنه إمام المبطلين ، وليس أبو
الطيب -- وهو من هو تعصباً للعروبة -- بالذى ينتمى إلى دعوة شعبية تتجاوز
الأسس الجنسية إلى المعتقدات والشرائع وتستهدف القضاء على كل مجد العرب .
كذلك

فإن ارتباطه بالحمدانيين - أعداء القرامطة الألداء - دليل على أنه ما كان
قرمطياً فى يوم من الأيام ، وهو الذى مدح سيف الدولة بأن أباه أفنى القرامطة فى
قوله :

أين المفر فى نجد فوارسها بسيفه وله كوفان والحرم
وربما كانت قصيدته الميمية التى غلا فيها بمدح أبى الفضل غنواً شديداً
واستعانتها فيها بنظرية "الحلول" سبباً فى اتهامه بهذه التهمة إذ يقول :
يا أيها الملك المصطفى جوهراً من ذات ذى الملكوت أسمى من سما
نور تظاهرك لاهوتية فتكاد تعلم علم ما لن يعلم
وواضح أنه يصف أبا الفضل بأنه نور من ذات الله ، نور لاهوتى وهو وصف
على طريقة المتصوفة وما يؤمنون به من الحلول ، ولا شأن له بالقرمطية .
أولعل بعض من رماه بهذه التهمة قد استند إلى الصفات المذمومة التى
ذكرها عنه ابن حمزة^(٢١) عندما قال :

"بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة وذلك أنه ما كذب ولا زنا ولا لاط ،
وبلوت من ثلاث خلال مذمومة ، ذلك أنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن ".
نقول: قد يأخذ البعض هذه المقولة دليلاً على قرمطية المتنبي ، لكننا نسقط
هذه الحجة بسؤال يسير:

ترى: كم من المسلمين اليوم الذين لا يصلون ولا يصومون ولا يقرأون القرآن
الكريم؟؟؟

فهل هم قرامطة أيضاً؟؟؟.

الهوامش

١. مطالعات فى الكتب والحياة .
٢. الصبح المنبى .
٣. التبيان .
٤. الصبح المنبى .
٥. السابق .
٦. عباس حسن .
٧. مطالعات فى الكتب والحياة .
٨. يتيمة الدهر .
٩. د. يسرى محمد سلامة .
١٠. مع المتنبى .
١١. فصول فى الشعر ونقده .
١٢. المتنبى إمام العصر الإسماعلى ، ترجمة أكرم فاضل ، مقال بمجلة المورد .
١٣. المهدي والمهدوية .
١٤. الشهرستانى : الملل والنحل .
١٥. تاريخ ابن خلدون ، ج٣.

١٦. محمد عبد الله السمان : دراسة بجريدة الوفد القاهرية .

١٧. البداية والنهاية .

١٨. الحكمة في شعر المتنبي .

١٩. المتنبي ، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا .

٢٠. المتنبي بين ناقديه .

٢١. الصبح المنبي .

خاتمة

لعل ما طرحناه يعطى صورة مبسطة - تناسب عصر أبى الطيب - عن مجمل ثقافة ذلك الشاعر الفحل .. تعلم فى الكتاب ، ترحال إلى البادية ، تردد على محال الوراقين ، احتكاك بالفلسفة اليونانية ، وقبل ذلك نبوغ مبكر صادف موهبة بحجم لا يقارن استوعبت ذلك كله ، وصهرته فى بوتقة ذات متطلعة إلى التميز والارتقاء .

ورغم أن المتنبي غادرنا منذ أكثر من ألف عام ، إلا أن شعره ما زال محتفظاً بحضوره وتوهجه ، ولم يأت ذلك من فراغ ، وإنما كان المرتكز والمنطلق : طبع شامخ وخيال جامع ، وفكر عميق ، وتجربة حية ، وعاطفة جياشة ، تضافرت كلها وأنضجت عبقريته هذا الرجل الذى ضربه الموت بدمائه .

لقد استكشف أبو الطيب طبيعة الشعر الحقيقى ، تلك الطبيعة التى لا صلة لها بأى زمان أو مكان والتى يستكشفها الشعراء كافة . إلا أن العباقرة منهم هم الذين يسبرون غورها ، ويملكون القدرة على التعبير عنها .

وتبدو عبقرية الشاعر الفذة فى استكناه ماسيثيره إبداعه بعد موته أليس هو

القائل :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى

إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدًا

فساربه من لا يسير مشمراً

وغنى به من لا يغنى مغرداً

وصفت نبوت

فهو وإن كان قد سقط مضرراً سقوط الجارية

وإن كان الموت قد أغلق سفر حياته

لكن الموت أيضاً فتح أسفار إبداعه

فَمَا أضعف الحياة أمام الموت

وما أضعف الموب امام العبقريّة

تَبَت المصادر المراجعة

ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، مراجعة أحمد زكي ، مختارات من تراثنا ، وزارة الثقافة والإرشاد بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٦٠ .

ابن قطاع الصقلي : شرح المشكل في شعر المتنبي ، تحقيق الدكتور محسن غياض ، وزارة الإعلام ، العراق .

أحمد زيد : دكتور / البناء الاجتماعي ، الهيئة العامة للكتاب فرع الإسكندرية ، الطبعة الثامنة ١٩٨٢ .

أحمد بدوي : دكتور / أسس النقد الأدبي عند العرب ، طبعة الفجالة ، مصر ، د . ت أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، الطبعة ٢٥ - دار نهضة مصر ، د . ت . أحمد سيد محمد : دكتور / الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي ، دار المعارف بمصر ١٩٧٩ .

حسين مؤنس : دكتور / مصر ورسالتها ، مطبوعات دار الشعب ، مصر ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٦ .

حلمي بدير : دكتور / فصول في الأدب .. التراث النقد . النظرية ، دار المعارف ، مصر الطبعة الأولى ١٩٨٣ .

زكي المحاسني : دكتور / المتنبي ، دار المعارف ، مصر ١٩٦١ .

شوقي ضيف : دكتور / فصول في الشعر ونقده ، دار المعارف ، مصر ١٩٧١ .

شوقي ضيف: دكتور / فى النقد الأدبى ، دار المعارف ، مصر - الطبعة السادسة
١٩٨١.

الطاهر لبيب: دكتور / سوسولوجية الثقافة ، معهد البحوث والدراسات العربية ،
مصر ١٩٧٨.

طه حسين : دكتور / من حديث الشعر والنثر ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٥ .

طه حسين: دكتور / مع المتنبي ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٦.

عباس حسن : المتنبي وشوقي ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٤ .

عباس محمود العقاد / وآخرون / أبو الطيب المتنبي حياته وشعره ، مجموعة
مقالات ، المكتبة الحديثة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٢.

عباس العقاد : مطالعات فى الكتب والحياة ، المطبعة التجارية الكبرى ، مصر
١٩٢٤ .

عبد الفتاح السيد الدماصى: دكتور / النقد الأدبى التطبيقى ، المطبعة العربية ، مصر
١٩٧٦ .

عبد الوهاب عزام : ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام ، طبعة الجزيرة ، بغداد ١٩٣٦ .

على الجارم : الشاعر الطموح ، سلسلة اقرأ ، دار المعارف ، مصر ، العدد ٥١ .

محمد زغلول سلام : دكتور / تاريخ النقد العربى إلى القرن الرابع الهجرى ، دار
المعارف ، مصر ، د.ت.

محمد عبد الرحمن شعيب: دكتور / المتنبي بين ناقديه ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٤ .

محمد محمد على أبوزيد: دكتور / النيل ومصر، دار الهداية للطباعة والنشر، مصر
١٩٨٧.

محمد كامل حسين : دكتور/ الشعر العربي والذوق المعاصر، مطبوعات دار الشعب
بمصر، د.ت.

محمد مندور (وآخرون) : دكتور / آراء حول قديم الشعر وجديده، مجموعة مقالات ،
سلسلة كتاب العربي ، الكويت ، العدد ١٣ ، أكتوبر ١٩٨٦ ،

محمد محمود شاكر: المتنبي ... رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ، دار المدنى بجدة ،
مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

معن زيادة/ دكتور / معالم على طريق تحديث الفكر العربى ، سلسلة عالم المعرفة ،
الكويت ، العدد ١١٥ ، يوليو ١٩٨٧ .

النعمان القاضي : دكتور/ كافوريات أبى الطيب ، مركز كتب الشرق الأوسط ،
مصر ١٩٧٥ .

هادى نعمان الهيتى: دكتور/ ثقافة الأطفال، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد
١٢٣ ، مارس ١٩٨٨ .

يسرى محمد سلامة: دكتور/ الحكمة فى شعر المتنبي ، دار المعارف ، مصر ١٩٨٢ .
يوسف أسعد : سيكولوجية الإبداع، سلسلة دراسات أدبية ، الهيئة العامة للكتاب ،
مصر ١٩٨٦ .

يوسف البديعى: الصبح المنبى عن حيثية المتنبي ، تحقيق وتعليق مصطفى السقا ،
وعبدہ زیادة عبده ، ومحمد شتا ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٣ .

ديوان أبي الطيب : علق على وفسر كلماته اللغوية سليم إبراهيم صادر ، المطبعة

العلمية ، بيروت ١٩٠٠ .

الموسوعة الثقافية : مؤسسة فرانكلين ، القاهرة ١٩٧٢

الدوريات :

مجلة الثقافة العالمية ، الكويت ، العدد ٢٥ ، يوليو ١٩٨٧ .

مجلة الدارة ، السعودية ، العدد الثالث ، السنة الثالثة عشرة ، ربيع الآخر ١٤٠٨ هـ .

مجلة فصول ، العدد ١ ، ٢ من المجلد السابع ، عدد خاص عن الشعر العربي الحديث ،

الهيئة العامة للكتاب ، مصر ، أكتوبر - مارس ١٩٨٨ .

المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، الكويت ، العدد ١٦ ، المجلد الرابع ، خريف ١٩٨٤ .

المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، الكويت ، العدد ٢٦ ، المجلد السابع ، ربيع ١٩٨٧ .

مجلة الطليعة الأدبية ، العراق ، عدد خاص عن المتنبي ، العدد الثالث ، المجلد

السادس ١٩٧٧ .

جريدة الوفد ، مصر ، العدد ٢١٧ ، دراسة عن القرامطة أهل الضلال ، محمد عبد الله

السمان .

جريدة الوفد ، مصر ، العدد ٢٢١ ، دراسة عن الموت والخلود في حياة المصريين ،

جمال بدوي .



Bibliotheca Alexandrina



0658666



العلم والإيمان • للنشر والتوزيع